

بولس غانم

فخر الدين المعني الثاني

١٥٧٢ – ١٦٣٥

بقلم بولس غانم

سلام عليك يا لبنان الاشم ، مصدر النبوغ والاشعاع ، ومنبت الرجال والابطال يا فتى الادهار ، وشيخ الجبال ، المعتم بعمامة من الثلج عن وقار وجلال ، المكسو بخضرة الربى عن امل ، الباسم عن ثغر صيدا المنضد من بيض ازهارها بالجمال ، سلام عليك يا ملتقى حضارات البر ، ومعتلي متن البحر، تدفع عليه من صيدون بكرك «قدموس» فيكتشف القارات ، وينشر الحضارات ، ومن صور فتاتك الاميرة « ديدون » فتنشىء قرطاجة وتنجب هانيبال قاهر الرومان .

سلام عليك يا منجب فخر الدين ، محطم اغلال الظلم ، وخالع نير العبودية التركية ، ورمز الاستقلال والحرية ، وجامع كلمة الطوائف اللبنانية ، والثائر الاول على الاستبداد والطغيان ، قبل الثورات الفرنسية والانجليزية والامريكية .

وسلام على ربوعك المضيافة ، يا منتجع الرائد وملجأ الملهوف والشارد ، يؤم رحابك الطامحون ، ويفيء الى ظلالك المضطهدون . هذه شواطىء البحرين تضيق بهمم رجالها ، وطموح ملاحيها ، فينزحون الى شواطئك الجميلة، وهم يحملون في يمناهم الحك الهادي في البحار ، وفي يسراهم أحرف الهجاء الهادية الى المعرفة ، وعلى السنتهم اسمي وطنيهما صور وصيدون التي اصبحت بفضلهم مدينة صيد الناس الى الهدى والمعرفة ، لا بلد صيد الاسماك .

وهؤلاء هم المضطهدون على الارض ، العطاش الى العدل والحرية ، في العصور المظلمة ، عصور بابل وآشور وبيزانطية والعثمانيين والمماليك ، نزحوا الى حماك فوجدوا في ذراك المتنعة ملجأ ومعتصما ، وفي ظلال ارزك فيئا وطمأنينة ، وفي سهولك الخصيبة قوتا ومرتزقا .

وتزول العصور المظلمة ، وتضع الحرب العالمية اوزارها، ويبشر الرئيس الامريكي ويلسون شعوب الارض بالعدل والحرية ، فيهلل المضطهدون ويكبر المكبوتون ، وتهتف الملائكة حول مذود عيسى : « المجد لله في العلى وعلى الارض الرجاء والسلام » . واذا بمعاهدة الصلح المرجوة وبوعد بلفور عدو الانسانية يحولان مبادىء ويلسون الى طغيان وسلب وتشريد ، واذا بفلسطين الجريح ، ثانية الكعبتين ومهد المسيح ، يلقى بها فريسة سائغة بين انياب وحوش ضارية ، صهاينة يلتهمونها ويشردون ابناءها واذا بلبنان الكريم المضياف ، يفتح حنايا صدره وسويداء قلبه للشقيق العربي المشرد ، ريثما يحق الحق ويجيء نصر من الله وفتح قريب .

هذه السنة الحكيمة الحميدة قد اوحى بها الى لبنان خلق عربي واديان سماوية وتربة مباركة ، وتقاليد عريقة ، ومصلحة جامعة مشتركة ، فسار على هديها ، باني صرح الوحدة اللبنانية ، وحامل مشعل الاستقلال والحرية ، الامير فخر الدين المعني الثاني .

بنو معن

وكل ما نعرفه عن نسب معن بن ايوب جد فخر الدين انه من عرب الشمال ، ومن ربيعة الفرس ، وانه كان من شجعان العرب الاشداء ، الضاربين خيامهم في بادية الشام، وان طغتكين حاكم دمشق اقطعه سهول البقاع وقفار الشوف ، في القرن الثاني عشر ، ليعمر ارضها ويحيي مواتها بعد ان تركتها الحروب والمظالم :

بيدا صوامت ليس يسمع ... في مداها صوت نابس
غضبت على الانسان واتخـ ... ـذت عليها الوحش حارس

وهكذا انتقل بنو معن الى جنوب لبنان ، وجعلوا عاصمة امارتهم بعقلين ثم دير القمر ، وصيدا واستبدلوامن الخيام بيوتا ، ونشروا الوية الامن والسلام على تلك الربوع فعمرت بالقرى والسكان وبالزرع والضرع .

معركة مرج دابق

كانت نقطة التحول في تاريخ الشرق العربي معركة مرج دابق : ففي سنة ١٥١٦ زحف سلطان المماليك قانصوه الغوري على سوريا ، لمنازلة السلطان سليم العثماني فتواقعا في مرج دابق على مسيرة يوم من حلب فدارت الدائرة على الغوري ، وكان على امارة الشوف يومئذ فخر الدين المعني الاول ، الواسع الحيلة ، المتقد الذكاء ، فوقف من تلك الحرب وقفة المتفرج ، حتى اذا انتصر السلطان سليم خف

---

* القيت هذه المحاضرة في صيدا يوم ٢١ مايو ١٩٦٥ بدعوة من نائب صيدا السيد معروف سعد ورئيس بلديتها .

لمقابلته، هو وامراء الغرب التنوخيون، فهنأه بانتصاره ، واظهر له الولاء ، وكان فصيح اللهجة ، مهيب الطلعة فأعجب به السلطان ، وامره على امارة الجبل ، وخلع عليه لقب « سلطان البر » .

وهكذا استقر الحكم لبني عثمان في سوريا ولبنان ووادي النيل ، وقضي على العرب بان يظلوا رازحين تحت نيرهم الثقيل ، طيلة اربعة قرون كاملة ، لم يحاول خلالها ان يخلع هذا النير الا الامير فخر الدين المعني الثاني ، ، ثم ظاهر العمر الزيداني والامير بشير الشهابي الكبير .

واغتال والي دمشق فخر الدين الاول سنة ١٥٤٤ ، فخلفه على امارة الجنوب ولده قرقماس ، وحدث في اثناء حكمه أن سطا اللصوص ، في جون عكار على شرذمة من جنود الاتراك كانوا يحملون الى اسطنبول اموال الخراج ، وكان حاكم عكار في ذلك التاريخ يوسف باشا سيفا الكردي ، فأدخل في روع الصدر الاعظم ان الجناة كانوا من رجال قرقماس فأصدر السلطان امره الى ابراهيم باشا والي مصر التركي فسيّر حملة كبيرة على لبنان ، للايقاع بقرقماس واسترداد الاموال المختلسة ، ولما بلغ في زحفه الى صوفر ، قدم عليه وفد من مشايخ الدروز وعقلائهم ليتنصلوا من حادثة السطو ، فغدر بهم ، وثارت ثائرة الدروز المفاوير ، وعلى راسهم قرقماس ووقفوا في وجه ذلك السفاح وجيشه يدفعونه عن ديارهم ، ويستميتون في سبيل ادراك ثارهم ، ولكن العدد تغلب في آخر الامر عليهم واضطروا الى القاء السلاح ، بعد أن قتل منهم ستون الفا من الرجال والنساء والاطفال . ولجأ الامير الى مغارة جزين حيث دس له السم وغد خائن من خدمه طمعا بجائزة الوالي .

وكان للامير قرقماس ولدان هما فخر الدين الثاني ويونس ، فعهدت بهما والدتهما الاميرة التنوخية الى الحاج كيوان عبد الله ، فهرب بهما الى كسروان وخبأهما فيقرية بلونة عند ابراهيم سركيس الخازن واخيه رباح . ولما هدات الحال سنة ١٥٩٢ وانسحبت جيوش ابراهيم باشا استدعى الامير سيف الدين التنوخي ابن شقيقته فخر الدين ، وعهد اليه بامارة والده ، وزوده بالمال والرجال .

وكان اول ما بدأ به حكمه ، استرداد ولايتي صيدا وبيروت ، وكان يوسف سيفا يطمع في ضم ولاية بيروت ، فزحف في سنة ١٥٩٨ بجيش جرار للاستيلاء عليها ، فكمن له فخر الدين في مضيق نهر الكلب مع حلفائه من آل شهاب ومقدمي الموارنة ، وكسره شر كسرة ، ولكنه آثر ان يتخذ منه صديقا وحليفا ، فرد اليه تلك الولاية على ان ابن سيفا حنث بايمانه واوقع بحلفاء فخر الدين وهم مقدمو الموارنة في جاج ، ومشايخ الشيعة في البقاع ، فزحف عليه الامير وواقعه في جونيه سنة ١٦٠٥ وهزمه وانتزع منه كسروان والفتوح .

وفي سنة ١٦٠٦ حالف الامير علي باشا جانبولاد والي حلب ، وطمع يوسف سيفا بولاية حلب فهاجم علي باشا ، فخف الامير الى نصرته وواقعا معا عدوهما ، فانتصرا عليه ثم صالحاه على مال وارتباط بمصاهرة .

وطارت شهرة فخر الدين وعلي جانبولاد حتى اتصلت بفردينان الاول ، غراندوق توسكانا وعدو تركيا ، فاوفد سفيرا من قبله ليعقد معاهدة مع الحليفين ، وقعها جانبولاد ، ولكن الاتراك هاجموه وهزموه فلجأ الى لبنان ، ولما اتصل نبأ هزيمته بفردينان اوفد سفيرا آخر الى فخر الدين عقد معه تحالفا حربيا وتجاريا تعهد الغراندوق فيه بأن يمد فخر الدين بالمال والاسلحة ، وان يضع تحت تصرفه سفنا من اسطوله اذا هاجم العثمانيون لبنان .

ولما أصبح الامير واثقا من قوة جيشه واخلاصه ، عقد العزم على تنفيذ خطة تستند الى ثلاثة مبادىء :

الاول ـ التحرر من ظلم العثمانيين ، الثاني ـ التأليف بين الطوائف والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات ، الثالث ـ تكبير لبنان والسير به نحو الحضارة واسعاد بنيه بتعزيز الزراعة والتجارة .

وزاده اقتناعا بامكان تحقيق الاستقلال التام ، ان السلطان احمد كان واهي الارادة ، ضعيف الحكم ، وان جيوشه كانت تلاقي الهزيمة بعد الهزيمة ، من الفرس والنمساويين والعصاة . ولو اغتنم الامير فرصة ضعف السلطان وهزيمة جيوشه فلربما كان حقق آماله وغيّر وجه التاريخ ولكنه آثر التريث والانتظار ، ريثما يأمن جانب ابن سيفا، وريثما يوطد البيت والاركان، ويعد العدة للنصر.

بدأ في التحالف مع الامراء الشهابيين النازلين في وادي التيم ، وتقرب بالمصاهرة من بني تنوخ امراء الغرب ، وزوج ابنته لحسن بن سيفا اتقاء لشر ابيه وفتح ابواب الشوف لموارنة كسروان والشمال وآخى بينهم وبين الدروز ، كما حالف مشاريخ العربان في البقاع وحوران، وعزز الشيعة في جبل عامل والهرمل ، وقرب اليه ابناء صيدا الناقمين على الولاة العثمانيين وادمج رجالا منهم في حرسه الخاص ، وخص مدينة صيدا ، عاصمته الشتوية بالمزيد من عنايته بما بناه فيها من جوامع ودور وقصور وخانات للتجار ، فازدهرت وعرفت من الرخاء ما لم تعرفه من قبل ولا من بعد ، وعرف له اهلوها هذا الفضل فوفوا له كل الوفاء ، فاقبلوا مغتبطين على سد مينائهم ، وهي باب رزقهم يوم دعت الحاجة الىمنع السفن العثمانية من الرسو فيها .

صيدا

يا صيدون القديمة ، يا أم المدائن ، وملكة البحار ، لقد حملت شموس المعرفة حتى بحور الظلمات ، واستعمرت المستعمرات ، وشدت قرطاجة وجادس ، ولبست اثواب الارجوان ، ثم خلعت فضلاتها على ملوك الارض ، وانت يا صيدا الجديدة قلب الجنوب الخافق ، وعاصمة فخرالدين الخالدة ، لقد اوشكت ان تكوني عاصمة الشرق العربي لو

ساعد الجد وتحقق الحلم ، يا عروس المدائن المكللة ببياض زهر البرتقال ، المعطرة بشذا عرق الليمون لقد استبدلت بصباغ ارجوانك وهو صنع آبائك صبغ شفقـك الوردي الجميل ، وهو من صنع الخالق وستعاضـين في عهـد « الحلو » ، من مر ذكرى سد مينائك بما ستفتحه يداه في ارجائك من مدرسة بحرية تعيد اليك مجد ملاحيك وعظمة سفائنك ، وسترفعين في ميادينك بدل التمثال تمثالين ، واحد لقدموس الفينيقي وآخر لفخرالدين العربي اللبناني .

* * *

ولكن توسع الامير وعلاقته الوثيقـة بدولة توسكانا ، أثارت الشبهات واقلقت السلطات ، فاخذ يفكر في سحقه قبل ان يستفحل امره . وأستشف الامير مـا يبطنه لـه العثمانيون فاوفد في سنة ١٦١١ المطران جرجس مارون مندوبا عنه الى قوزما الثاني يستحثه على ارسال الجنود والسفن الحربية ، كي يقوى على التغلب على الجيوش العثمانية ، التي كانت تتألب للزحف عليه .

وفي اثناء ذلك صدر امر السلطان الى والي دمشق بأن ينتزع سنجقي حوران وعجلون من الشيخين عمرو وحمدان حليفي فخر الدين ، ولكن الامير اعادهما الى السنجقين بحد السيف فثارت ثائرة الباب العالي وجرد في سنـة ١٦١٣ حملة قوية للفتك بالامير وحلفائه .

ولم يكن فخر الدين قد أتم بعد استعداده ، لرفع راية العصيان ولا كان قد تلقى المدد الموعود به من قوزما الثاني . فقر رايه على السفر الى توسكانا ، بعد ان جهز قلاعـه بالرجال والذخائر ، وسلم اخاه يونس قيادة الجيش ثم اقلع الى ايطاليا ، مستصحبا زوجته ومستشاره كيوان بن عبد الله .

وقبل ان نتابع سرد حوادث التاريخ ، يجدر بنا ان نرسم صورة قلمية صادقة لفخر الدين واخلاقه وطباعه ، وان ننظر نظرة عجلى في ما تركه من آثار ومآثر وما نظمه من جيوش وما قام به من أصلاح في حقلي الزراعة والتجارة.

وصفه معاصروه فقالوا : كان فخر الدين ، حنطي اللون ، اسود الشعر ، قصيرا في قامته ، عملاقا في ذكائه وشجاعته داهية كالثعلب ، مقداما كالاسد ، شديد الطمـوح الـى السيطرة وكان على سعة سلطانه متواضعا صافي السريرة، عف اللسان حليما عند الغضب شديـد الحزم ، حسن التدبير ، بآرا بوالدته كل البر ، فلم يكـن يهم بعظيم الا استشارهـا .

ويبدو من رسم الامير الذي كان معلقا في بهو قصر دوق توسكانا ، انه كان يلف عمامة على لبادة تعلو رأسه ويرسل لحيته طويلة وان حاجبيه الكثيفين يعلوان عينين براقتـين تشعان ذكاء وطيبة . وقد عيّره اعداؤه من آل سيفا بقصر قامته ، فقال زجالهم :

جونـا الطـول يا نصلـه السكـين يا سلسلي مذهبي يا سيف عليالدين
جونـا القصار ، لا شور لا تدبير ضفادع تقعقع في قراتـي البيـر

فلما سمعت ابنة الامير زوجة حسن بـن سيفا هـذه الابيات ، ردت عليها بقولها :

عيروني بقصرك ، قلت عـود التبر والقد قد الغزال والعنق شامخشبر
قولو لاهل النهى، قولوا لاهل الخير فمل القلم بالدني ولو كانطولو فتر

ثم ارسلت ابياتها مع أبيات الزجال الى ابيها ، فكتـب اليها مثنيا ورغب اليها ان تزيد على ما نظمته البيتـين الآتيـين :

نحنـا قصار وفي عين العدو كبار انتو خشبحور، ونحنا للخشبمنشار
وحـق طيبه وزمزم والنبي المختار ما بعمرك يا دير الا من حجر عكار

دينـــه

لقد اجمع المؤرخون على انه عاش ومات مسلما تقيـا ورعا ، وانه كان يداب الصلاة في دار هجرته في توسكانا ، وانه بنى مسجدا في مدينة نابولي ، واقام عليه اماما سنيا ومؤذنا ، كما بنى جامع القاع في البقاع والجامع البراني في صيدا ، الذي دفن فيه ابن اخيه ملحم بن معن ، كما حبس الاوقاف على هذا الجامع .

واذا كان قد ساوى بين جميع الطوائف وقرب اليـه الموارنة ، فلانهم كفوه شر العثمانيين ، يوم خبأوه صغيرا واحبوه واخلصوا له كبيرا ، وكانوا من خيرة جنده ، لـم يفارقوه ولا تخلوا عنه حتى اليوم الذي وقع فيه اسيرا ، وقد سقط منهم في الدفاع عن امارته اكثر من ثلاثين الفا من اشجع رجالهم .

ثم انه اتخذ التسامح مبدا وديدنا ، لبعد نظره ، وسمو تفكيره وليقينه ان استقلال لبنان لا يتحقـق الا بتآلـف طوائفه وتسامحهم فكان أول من نادى في البلاد العربية بأن الدين لله والوطن للجميع وان الاديان السماوية نوافذ يخرج منها الى عبادة الله . وعلى هذا المبدا السامي ، يسير اليوم لبنان الحديث وابناؤه ، مؤلفا بين طوائفه ، موزعـا بينهم المساواة في الحقوق والواجبات ، ريثما يحين الزمن الذي فيه تنصهر القلوب في بوتقة واحدة وتتسع مفاهيم المواطنين لادراك تطورات الازمان ودواعي الحضارة فتزول الطائفية وليدة العصور المظلمة ، وتحل محلها الوطنيـة الصـادقـة .

جيش فخر الدين

كان جيش الامير يختلف باختلاف اتساع ولايته ، فبدا بعشرين الفا في اول امره ، واصبح مئة الف في آخر ايام حكمه ، وكان هذا الجيش ينقسم الى فرقتين : فرقةوطنية صرفة وقوامها ابناء لبنان ، والاخرى من المرتزقة الاشداء، أطلق عليهم اسم السكمان « وهي كلمة فارسية معناهـا الصيادون » . وكان فوق ذلك يعتمد في حملاته الكبيرة على حلفائه ، كآل حرفوش ، وقبائل البدو فـي عجلون وحوران وبني شهاب السنيين في وادي التيم ولكن جميع هؤلاء الحلفاء ، ما عدا الشهابيين تخلوا عنه في آخر امره.

وقد وصف « سانتي » مندوب كورسيكا ، نظام جيش الامير في تقرير بعث به سنة ١٦١٤ الى توسكانا فقال : ان

قوة جيش فخر الدين ، راجعة اولا الى بسالته ، وحسن تدبيره ، ثم الى وطنية رجاله واخلاصهم له وان المشاة كانوا يلبسون خفيفا ويحملون البنادق والسيوف وان الفرسان كانوا يلبسون ملابس ثقيلة ، ويلتحفون بالجبات الواسعة ، ويحملون البنادق ذات القداحات ، وفي رؤوسها الحراب ويتقلدون السيوف ، ويضعون الدبابيس في السروج ، ويمسكون بالتروس ويمتطون اسرع الجياد العربية ، ويسرعون في الكر والفر .

بهذه الجيوش التي نفخ فيها الامير من روحه وبأسه عرف ان يتغلب على اعدائه ، وان يرغم الدولة العثمانية على احترامه ومصافاته ، والاعتراف بامارته زهاء نصف قرن ، وبهذه الجيوش كاد يتحقق حلمه بأستقلال لبنان التام ، لو أن دوق توسكانا قام بتنفيذ معاهدته ، ولو ان الحلفاء لم يخذلوه ، ولو انه لم يقع في الخطأ الذي وقع فيه من تفريق جيوشه ، والاحجام عن منع الجيش التركي من النزول الى شواطىء لبنان ومن تسليم قلعتي صيدا وبيروت اتكالا منه على وعد امير البحر بأن يمتنع عن مهاجمة جيشه ، وان يسعى لدى السلطات لاستبقائه على امارته .

العدل والامن

وشمل عدله سائر الطبقات واحتفظ لنفسه بالحكم في الجرائم وترك لرؤساء الطوائف الفصل في القضايا الدينية والمدنية والاحوال الشخصية ، وشهد السائح « سنديس » انه كان حاكما عادلا صادقا ، وضرب لذلك امثلة كثيرة ، وقطع دابر اللصوص والاشرار وكثيرا ما كان يتعقبهم بنفسه ، فساد الامن وعم الرخاء وتنفس الناس الصعداء بعد ان قاسوا ما قاسوه من ظلم واستبداد في حكم المماليك والعثمانيين .

التجارة والزراعة

وعزز التجارة في الداخل والخارج ، فكان ملاحو صيدا وصور وبيروت يبحرون ذهابا وايابا ، حاملين على مراكبهم الحرير والقطن والكتان والحبوب والزيت والاخشاب ، ويعودون مثقلين بالاموال والمصنوعات والمنتوجات .

وصرف عناية خاصة الى انماء الزراعة وتشجيعها وتربية المواشي لانه رأى فيها غنى لبنان ورخاءه فاكثر من غرس الاشجار المثمرة وامد الزراع بالحبوب والمواشي التي استقدم منها انواعا كثيرة من ايطاليا لتحسين النسل .

وشجع زراعة التوت لانتاج الحرير اللبناني الذي امتاز بصفاء لونه ومتانة خيوطه ، وكان اكبر مورد رزق للبنان ، واكثر من زراعة الزيتون وادخل زراعات جديدة منها القطن والكتان ، وغرس غابات الشوف والمتن وبيروت وجدد غابة مسقط رأسي بكاسين ، تلك الغابة التي اوحت الى احلام صباي والهمني انين اعوادها وخرير مياهها ومكنون اسرارها ، وشبابات رعاتها ، ما نظمته من شعر وحملته من حنين الى لبنان وابنائه .

نداء

يا خليفة فخر الدين يا « حلو » الاسم والشمائل لقد كان العرب ولا نزال نحن نتفاءل بالاسماء الحسنى ونلتمس الخير من محاسن الوجوه لقد عقدنا عليك الآمال الطوال في تعزيز الزراعة والصناعة .

وانتم ايها النواب العاملون وفي طليعتكم ابو الفقير ونصير الشعب وملجأ العامل والفلاح ، لقد عنيت رجل « المعروف » و « سعد » مدينة صيدا ونائبها الاوفى .

لقد انصاحت مراعيكم واقفرت اوديتكم من العمال والمزارعين ، فألقى حاصدكم بمنجله ، وفلاحكم بمحراثه وحدادكم بمطرقته ، واقبلوا كلهم على المدينة يلتمسون فيها ذلك الخبز الذي كانت هي تلتمسه منهم ، فخلا الحقل من فلاحه المكفي وسلطانه المخفي واقفرت القرى من ذوي السواعد المفتولة الذين فتتوا قديما الصخور الصلبة فأحالوها الى تراب نما عليه الكلأ وارتفعت فوقه الاشجار ، وجفت الشجرة اسى على غارسها ولبست الارض الشوك حدادا على حارثها ، وذوت الكرمة شوقا الى عاصرها واصبح لبنان قزما في جسمه له هامة جبار في عاصمته واصبح مستوردا لكل حاجاته ، فقيرا في مصدراته .

يا اولياء الامر لقد آن ان تتنبهوا الى الخطر المحدق والدمار المهدد وان تنفخوا في الصور وترسلوا النذير ، فتعيدوا مهاجر القرية الى حقله وعاملها الى مصنعه ، بأن تنشئوا مصانع للصناعات الصغيرة في مختلف القرى وان تؤلفوا فيها النقابات الزراعية وتمدوا الفلاحين بالقروض وبالهبات وتحسنوا نسل المواشي واجناسها ، حتى اذا اقتديتم بمثل فخر الدين ناديتم بالقرويين قائلين : عودوا الى الارض فهي أمكم الرؤوم .

عود على بدء

وفي سنة ١٦١٨ عاد الامير الى وطنه بعد ان نال عفو السلطان فاستقبل استقبالا وطنياً رائعا وكان اول ما فكر فيه ان ينتقم لنفسه ولمواطنيه من ابن سيفا الذي كانت وشايته بالدروز قد سببت ما اوقعه بهم ابراهيم باشا التركي من تقتيل وتشريد ولا سيما ان ذلك الطاغية كان قد اغتنم فرصة غيابه فقتل الكثيرين من اعيان الموارنة في الشمال ، واستولى على كسروان ، واحرق قصر الامير في دير القمر ، فهاجمه فخر الدين في عكار وهزمه واستولى على حصن الاكراد وانتزع منه بلاد البترون وجبيل وجبة بشري وجاء بحجارة من انقاض قصر ابن سيفا فرمم بها قصره ومسجده في دير القمر ، فبر هكذا بقسمه ولكنه عفا عنه واستبقاه .

وفي سنة ١٦٢٢ اقطعه الباب العالي سنجقي عجلون ونابلس ولكن حليفه يونس الحرفوش امتلأ غيظا وحسدا ، فحض مصطفى باشا والي دمشق على الامتناع عن تسليم

السنجقيين ، فحشد الباشا جيشا قوامه اثنا عشر الف جندي وزحف به على لبنان ، فواقعه الامير في مجدل‌عنجر سنة ١٦٢٣ باربعة الاف من رجاله ، فمزق جيشه واسره ثم عفا عنه بعد ان ارغمه على التنازل عن البقاع وغزة وقد وضع صديقي الاديب الكومندان جميل ذبيان ملحمة شعرية رائعة في وصف هذه المعركة .

ومات يوسف سيفا في ٢٠ تموز سنة ١٦٢٥ وعهد السلطان الى فخر الدين بتحصيل الاموال الاميرية المستحقة على ابنائه ، فخف الى بلاد عكار وتغلب على ابناء سيفا واستولى على قلعتي الحصن والمرقب ففاز برضا السلطان فانعم عليه « بلقب سلطان البر » الذي كان يحمله جده ، واصبحت امارته بل امبراطوريته ممتدة من جبال طوروس حتى عريش مصر .

وفي هذه السنة جال الامير في ارجاء امارته الواسعة على رأس قوة من رجاله فعمم الامن وقطع دابر العصاة والاشرار ورمم القلاع وبنى الحصون واقام الجسور ونشر العدل فذاق الشرق العربي طعم الراحة والرفاه والطمأنينة طيلة عشر سنوات .

ولما رأى الامير اتساع امارته واطمأن الى قوة جيشه اسر في نفسه ان يقطع الصلة الواهية التي كانت تربطه بالسلطان ولكن السفن الحربية والمدافع كانت تنقصه للدفاع عن شواطىء لبنان ، فاوفد في سنة ١٦٢٧ سفيرا الى اسبانيا وايطاليا وتوسكانا ، يطلب مده بالرجال وبالسفن ريثما يتسنى له انشاء اسطول لبناني . وفي سنة ١٦٢٩ جدد علاقاته بدولة توسكانا فارسلت اليه اسلحة وذخائر ووعدت بارسال سفن حربية .

ولكن اعين الحساد وجواسيس عدوه الالد احمد كوجك باشا والي دمشق كانت ترقب حركاته وتستطلع نواياه ، فوشوا به الى السلطان مراد الرابع واقنعوه بانه طامع في عرشه ، فجهز جيشا جرارا امر عليه عماد باشا واصدر امره الى والي مصر ودمشق بالزحف على لبنان بقيادة احمد كجك المذكور ، وجهز اسطولا قوامه اثنتا وعشرون سفينة حربية وكان عدد الجيوش الزاحفة من حلب ودمشق وغزة ثمانين الف رجل ، ولم يكن لدى الامير الا ثلاثون الفا من المواطنين وبعض رجال السكمان ، لان جميع حلفائه خذلوه .

وقد رأى الامير رغم معارضة مستشاره ابي نادر الخازن على قسمة جيشه الى فرقتين ، وجه الواحدة منهما ، بقيادة ابنه علي جنوبا لتحول دون اتصال الجيوش الزاحفة، واستبقى لديه نحو عشرين الفا من جيشه الوطني .

اما جيش علي الشجاع الملقب بآفة الانكشارية فقد وقف بين الجيشين الزاحفين بين صفد وبانياس واستطاع ان يحرز النصر في اول الامر بفضل اقدامه وشجاعة رجاله ، ولكن انتصاره كلفه سبعة الاف رجل سقطوا كلهم قتلى فعجز عن الافادة من انتصاره ، وارتد الى وادي التيم فهاجمه الاعداء من مؤخرة جيشه فقتل جواده وسقط على الارض ، فأحدق به الاعداء وقطعوا رأسه واصبعه التي كان فيها خاتمه وارسلوهما الى السلطان وكان ذلك ١٦٣٤ .

واما الجيش الذي كان يقوده الامير فقد قاتل قتال المستميت في الجبال والقلاع مدة عشرة شهور سقط فيها من رجاله ثلاثون الفا كلهم من اللبنانيين بعد أن ابدوا من آي البطولة والشجاعة ما لم يرد ذكره في الاساطير فقد كانوا يستقبلون قنابل المدافع بصدورهم ، ويشقون اليها الطريق بسيوفهم ويعودون ببعضها الى صفوفهم .

سد المدافع في الهيجا صدورهم حتى استلانت لاسد لا يلينونا
وسددوها وقد كانت قذائفها قلوبهم ، يا لهم جنا مجانينا

ويقول المؤرخ الفرنسي « شارل بارتلمي » : « وبعد جهاد المستميت من جيش لم يكن فيه من خائن او خاذل او جبان ، اضطر فخر الدين الى الاحتماء في قلعة نيحا ، ثم الى الاختباء في مغارة جزين حيث استسلم الى احمد باشا كجك في تاريخ ١٠ كانون الاول سنة ١٦٣٤ فسيق الى اسطنبول ومعه زوجته وابنه الصغير وكنوزه النفيسة ، وعلم السلطان بقدومه فتنكر ومشى الى لقائه فادركه في القرب من مدينة اشقودره ، وهناك تحدث اليه متخفيا ، فاعجب بحديثه وذكائه وسعة اطلاعه ، فاصطفاه وإكرمه وارسله الى اسطنبول وانزله في احد قصوره ، ولكن السلطانة الوالدة والمفتي والصدر الاعظم ، اوغروا صدره عليه ، فامر بخنقه هو وولده الصغير سنة ١٦٣٥ » .

واما مؤرخو العرب ، فقد كانوا اكثر ايضاحا وتفصيلا ، لاعتمادهم على اقوال المعاصرين وشهود العيان .

حدثني عمي الخوراسقف يعقوب غانم ، وقد كان حجة في التاريخ ، نقلا عن ابيه وجده الاعلى ابي علوان غانم الذي كان ضابط حرس الامير ومرافقه قال (بعد ان دافع فخر الدين عن الشوف لجأ مع حرسه وفلول جيشه الى قلعة نيحا او شقيف «تيرون» الواقعة فوق جبل اجرد صعب المرتقى فطارده أحمد كجك باشا ، ولكنه لم يستطع ان يستولي على القامة عنوة لاستحالة الوصول اليها من ممراتها الصخرية المتنعة ، فنصب مدافعه امامها في قرية بكاسين على مرتفع يعرف حتى اليوم بتل الباشا ، واخذ يقذف القلعة بكرات مدافعه التي رأيت انا واحدة منها في صفري .

فاحدثت القنابل فجوات في تلك الصخرة لم تزل بادية حتى اليوم ولكنها لم تنل من متانتها لبعد الهدف ، ودام الحصار نحوا من شهر واوشك القائد ان يعود ادراجه اتقاء لبرد الشتاء وكان بين مستشاريه رجل ايطالي ، ذكر المؤرخون ان اسمه انطونيو ماركو دوناتي التحق بخدمة الامير ردحا من الزمن حتى اذا اطلع على اسرار جيشه وخفايا قلاعه فر الى دمشق والتحق بواليها ، طمعا في المال . هذا الخائن افضى الى الوالي بان يصل الى القلعة بمواسير من فخار ، حفرت لها قناة عميقة تحت الصخور

واشار عليه بان يعطش الخيل ويرسلها ما فوق القلعة لانها اذ تشتم أماكن مرور الماء تضرب الارض بحوافرها التماسا له فعملوا بارشاده ولما حاولوا الحفر اعجزهم الامر ، لان الصخور كانت كلسية فاوعز اليهم بصب الخل عليها ففعلوا واكتشفوا المواسير فحطموها والقوا في القناة الاقذار والدماء فأفسدوها وهكذا اضطر الامير الى ترك القلعة والفرار ليلا الى مغارة جزين بعد ان اغدق الهبات على رجاله ، ومنهم اجداد عائلات بكاسين ومشموشة وبنواتي وعازور ، فخص جدي الاعلى ابا علوان غانم مرافقه الخاص بربع بكاسين واخذ الجنود يبحثون عن الامير في الجبال والوهاد حتى أهتدوا الى مخبأه في مغارة جزين التي لا يرقى اليها الا بالحبال وجاء الباشا ونادى الامير وامنه على حياته باسم السلطان ، طمعا بالاستيلاء على امواله وكنوزه المخبوءة ، وهددوه بنسف المغارة ان هو رفض الاستسلام، فاستسلم الامير مكرها ، ضنا بحياة بنيه كأني به يقول مع ابي فراس الحمداني :

وقال اصيحابي الاسار أو الردى   فيالهما امرين احلاهما مر

وسيق الى دمشق ومعه امواله وزوجاته الاربع وابناؤه الثلاثة ثم سير الى أسطنبول مع ابنائه وتركت زوجاته في دمشق .

وتضاربت اقوال المؤرخين في تفصيل مصرعه واسباب غدر السلطان مراد به بعد ان امنه على حياته ولكن اصدق الروايات ما جاء في كتاب ارسله الى جراندوق توسكانيا في نيسان ١٦٣٥ مبعوثه الخاص في الاستانة المدعو فرنسيس فنتوريني وهذا نص ذلك الكتاب .

« بعد ان عفا السلطان عن الامير ، بلغه وهو خارج اسطنبول ان ابن اخي فخر الدين ملحم لجأ الى قبيلة من عرب الصحراء وهاجم جيش باشا دمشق ، فاشتد غضب السلطان وامر الوالي بان يقطع رؤوس زوجات الامير الاربع ، فقطعوها وعلقوها على اسوار المدينة ، ثم اوفد احد الباشوات الى اسطنبول ، مأمورا باعدام الامير وابنائه وفي الثالث عشر من نيسان سنة ١٦٣٥ امر الباشا رجلين أخرسين بان يخنقا الامير وبنيه في ساحة الجامع الجديد فنفذا الامر وتركت جثته في الساحة ثلاثة ايام بحراسة الانكشارية » .

الى روح فخر الدين

يا ابن لبنان الابر ، وامير الجبل الاغر ، ولست اناديك بسلطان البر ، بلقب خلعه عليك قطاع رؤوس النساء وقتلة الشيوخ والاطفال ، سلام على روحك الوثابة !

هذه صيدا عاصمة مجدك وساحة جهادك تحتفل بذكراك وتخلد بطولتك ، وتتغنى بمآثرك ، كما تغنى بها من قبل الشرق والغرب ، والكاتب العبقري هاملتون في رائعته لقد سقت دماء ابنائك جبال الشوف وسهول صيدا ووادي التيم ، فانبتت مثلا عليا من الاباء والوطنية والنزوع الى الاستقلال والحرية واما دماؤك الزكية فقد شاء ربك الا تسيل فتسقي ارض اعدائك المتعطشين لتلك الدماء .

لقد عهدوا الى اخرسين بكتم انفاسك الطاهرة ، كي لا يستطيعا ان ينقلا الى ابناء وطنك وصيتك الاخيرة لهم بالبذل والتضحية في سبيل الاستقلال والحرية ولكن تلك الانفاس في صعودها الى جنة الخلد دفعتها شمال البوسفور فسارت جنوبا تقطع الاجواء حتى علقت باشجار الارز وبغار الشوف وبازهار جنات صيدا ، لتبعث بالخلود الى تلك الاشجار ، وتنفخ الروح الطيبة في هذه الازهار التي طالما نظمت منها اكاليل بيضا لذكريات انتصاراتك ، ونثرت منها ورودا حمرا على قبور جنودك المعروفين الذين لم يكن قط بينهم جندي مجهول .

عظمة التاريخ

يا ابناء وطني الاعزاء : يقول ابن خلدون في مقدمته: «اذا لم يكن للامة مجد تالد وتاريخ ناطق ، واثر باق فلا تدوم سلطتها ولا تتأصل حضارتها » ، فهذا مجدكم التالد ورثتموه عن فاتحي البحار ومحضري الشعوب ومخترعي الكتابة وملوك الصناعة والتجارة وهذا تاريخكم الناطق بعزتكم وكرامتكم ونفوركم من الظلم والعبودية ، كتبه لكم بحروف من نور ونار ، وبمداد من دماء ، آبائكم ، رمز الوطنية والاستقلال ، فخر الدين العربي اللبناني الذي نؤرخ له اليوم ونستعيد ذكريات مآثره وآثاره في عاصمة امبراطوريته ، صيدا الجميلة الساحرة التي جدد بناءها بعد زلزال ورفع فوق المدن لواءها ، وارسى مجده على وفاء ابنائها .

وهذه آثاره حية باقية ، تشيد بها الطوائف المؤتلفة المتحدة وقرى الجنوب العامرة بعد خراب ، العزيزة بعد مذلة ، وهذه مأثرة الفذ تشهد بها الجوامع المرفوعة الى جانب الكنائس المشيدة والخلوات الانيسة والجسور المقامة والغابات المغروسة .

ولكن هذا التاريخ المجيد المكتوب على صفحات القلوب ، لا يزال مطموسا على الاوراق ، مجهولا من طلبة المدارس ، امل الوطن ورجال الغد ، فاكتبوا تاريخ فخر الدين كما يجب ان يكتب ، وحفظوه للشيب والشبان كي تنمو فيهم روح الوطنية والعزة القومية فتزول النعرة الطائفية وليدة الجهل وعصور الظلمة واداة تفكك الدولة وانحلالها ، ذلك ما اراده وعمل له فخر الدين . طالبوا ذوي الامر بالمحافظة على تراثه وآثاره ، فهي ثروة وطنية ، ومحجة قومية .

ايها الغادي المبكر الى جنات صيدا المهيمن عليها روح فخر الدين ، وانت انت ايها السائر صعدا الى جزين المنحني خاشعا فوق مغارة فخر الدين :

اخلع حذاءك فالمكان مقدس   فهنا استقر المجد والآثار
قف خاشعا مترحما او ذاكرا   مستعبرا ان هاجك استعبار

بكاسين — لبنان   بولس غانم

*** مصادر هذا البحث : الدويهي ، المحبي ، الخالدي ، الشدياق ، الحتي ، قرأ لي .**

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

***

كان العرب والاغريق من قبلهم يفرقون بين عالمين : العالم الاصغر وهو عالم الانسان المفرد والعالم الاكبر وهو العالم الخارج عن الانسان . فالعالم يتكون من الفرد بجسمه وبروحه او نفسه والعالم الاكبر يتكون من الافراد الاخرين ومن الاشياء . وبين العالمين هذين تفاعل متبادل ، يؤثر الواحد منهما في الاخر . ويكون الاتصال بين العالمين عادة عن طريق اشتراك الفرد فكريا وجسميا في الحركات الفكرية والطبيعية الدائرة في العالم الخارجي من جهة ، وعن طريق تاثير الظروف المادية والاحوال المعيشية في عالم الفرد من جهة اخرى . وانقطاع هذا الاتصال لا يحدث الا عند الموت او يحدث جزئيا عند الانعزال عن العالم في سلوك بعض الزاهدين أو المتوحدين او الاولياء او القديسين ويحدث الانقطاع ايضا في حالة الانسلاخ او التجافي — تلك الحالة التي نشأت بنشوء الفنون الصناعية وجعلت من الانسان الة صماء من جملة الالات الصناعية الاخرى ، كما شرحتها ذلك في مناسبات عديدة سابقة . ولكن الذي حدث في هذا النوع من الانقطاع ان الانسان قد تجافى عن عالمه الاصغر واندمج في العالم الاكبر ، ولم يعد انسانا كاملا يشعر بكيانه وبنفسه شعورا وافيا . في هذه الحالة يفقد الانسان وجوده . وتخليه عن وجوده هذا يجعل منه شيئا كالريشة اينما يذهب بها الريح تذهب . هذه الحالة هي التي ثار عليها الوجوديون بصورة خاصة ، واصروا على أن يستعيد الانسان عالمه الاصغر بكامله اولا وان يشترك في العالم الاكبر بعد ذلك ثانيا . فاذا كان الانسان عالما طبيعيا مثلا ، فاشتراكه في العالم الخارجي يكون عن طريق دراسة هذا العالم دراسة علمية مجردة ، تشبه موقف المتفرج على منظر أو مشهد سينمائي او روائي . فلا هو من المشهد ذي شيء ولا المشهد منه في شيء ، لان الاثنين منفصلان الواحد منهما عن الاخر . هذا الموقف هو الموقف العلمي الحديث الذي ينظر الى كل مخلوق حتى الى الانسان بأنه شيء من الاشياء خارج عن النفس — ينبغي فحصه والتعرف به عن بعد . ولكن كيف يتسنى لاي انسان ان يعرف انسانا اخر ما لم تتصل الروح بالاخرى وتتفاعل النفس مع النفس الاخرى ؟ فاذا كان التعرف على الاشياء المادية ممكناً بطريق البحث العلمي المجرد ، فأن التعرف بين الاشخاص لا يكون ممكنا الا اذا تفاعل وجود شخص مع وجود شخص اخر او اشخاص اخرين ، وكان هذا التفاعل عن طريق الاحتكاك في المعيشة والتواصل النفساني . فالنفس هي التي تعرف نفسا اخرى فالفرد اذن لا يكون فردا وجوديا صحيحا الا اذا تملك نفسه بنفسه وامتزج بهذه النفس مع نفوس الاخرين واندمج معها . وهذا هو معنى اشتراك عالم الفرد الاصغر بعالم الافراد الاخرين ، بحيث يتفاعل وجود الانسان مع وجود الانسان الاخر .

ومن مستلزمات هذا الوضع الوجودي الاعتراف بأن الانسان محدود يعيش في حيز معين ، وفي مكان معين وفي زمن معين . والقول بأن الانسان يستطيع بنفسه او بروحه الى ان يبلغ درجات مختلفة من الكمال القدسي تبعده عن حقيقة وجوده ليس له ما يؤيده عند فلاسفة الوجودية . وكان افلاطون زعيما لهذه الفكرة ، واثر بها على كثيرين من بعده في شتى العصور ، ومن هؤلاء ابن سينا على ما اظن . ومن ارائه ان الانسان في حياته في هذه الدنيا يكون غريبا عن عالم الماهية او عالم الاسرار الروحية ، فوجوده عرض من الاعراض ، كما يقول ابن سينا وتكون الروح في هذه المدة الوجودية في حالة اسر تتطلع الى الوقت الذي يموت فيه الانسان حتى تنطلق من عقالها وسجنها وتعود الى عالمها العلوي من عالمها السفلي . ولكن افلاطون يرى ايضا ان هذا العالم السفلي لا يستحق ان يكون موضعا للحقائق العلوية الغيبية ، فهو مسخ للوجود المثالي . ومادام الانسان عائشا في هذا الوجود فهو لا يستطيع معرفة الاسرار العلوية المحجوبة ، ولا يمكنه ان يشترك في عمليات مبنية على هذه الاسرار . فوجوده اذن في مدة حياته في هذه الدنيا هو من قبيل العبث ، لانه اولا يكون عرضة للخطيئة بسبب قصور عقله عن ادراك الحقائق ، ولانه ثانيا بعيد عن ادراكها لانها في عالم غير عالمه الحالي . ولا يخفى ان في هذه الاراء ما هو شبيه باراء بعض الديانات كالديانة المسيحية مثلا . ومن ذلك ان السبيل الوحيد لمعرفة الاسرار الغيبية هو الاقتراب بالقدر الممكن من العالم الروحي العلوي ، عن طريق تصفية النفس بالعبادات والتأملات واماتة الجسم والشهوات لاضعاف الصلة المادية بهذا العالم وتقويتها بالعالم الروحي . وكان هيكل الفيلسوف الالماني الكبير يرى ان الانسان باستطاعته ان يتخطى حدود معيشته في الدنيا ، او حدود عالمه الاصغر ، وان يرتفع بنفسه الى عالم الماهيات . فهو يدعو في الحقيقة الى التهرب من الوجود والتقرب الى الماهية ، وهذا خالفه فيه كيركيفور الدانماركي مخالفة شديدة فقد دعا هذا الى عدم التفكير بهذه الفلسفات النظرية ، والعكوف على التفكير بوجود الانسان في هذا العالم وبكيفية التواصل نفسانيا بين الانسان الواحد والانسان الاخر ، ودعا الى ان يرجع الانسان الى وجوده الحقيقي لانه بهذه الرجعة يستطيع معرفة الحقائق ولا يستطيع معرفتها بشيء اخر .

وهنا لا بد من الكلام بعض الشيء عن معنى الحقيقةعامة وعن معناها في نظر الوجوديين خاصة . واحسن توضيح لذلك هو ان نتذكر مثلا قاموسا او موسوعة علمية ، فان هذه الموسوعة تعطينا المعلومات المجردة دون ان تلتبس بالمشاعر او بالعواطف الخاصة . ولكن هذه المعلومات او الحقائق لا تكون وجودية الا اذا كانت صادرة او ناشئة عن اختبار الانسان في معيشته وتجاربه. فالحقائق الشخصية هي الحقائق الصحيحة في رأي الوجوديين، لانها، كما قلنا ، وليدة الاختبار والتجربة عمليا وليست وليدة التخيلات الفكرية نظريا. ولذلك يقول كيركيفور ان محاولة الاستدلال على الوجود من طريق الفكر هو من قبيل التناقض ، لان الفكر هو الذي يبعد الوجود عن الحقيقة . ويستشهد على عدم فائدة التخيلات الفكرية في المجال الوجودي العملي بمثلث متساوي الاضلاع . فأن هذا المثلث ، كما

هو معلوم ، لا يمكن ان يوجد وجودا فعليا في الطبيعة وانما يوجد صناعيا اذا صرفنا النظر عن الطبيعة والظروف الطبيعية . ومن ذلك أيضا اننا اذا اردنا أن نكون لشيء من الاشياء صورة في الذهن ، فأول شيء نفعله هو اننا نحذف كثيرا من الصفات الطبيعية لهذا الشيء . فكلمة (كرسي) تشير الى صورة ذهنية ، ولكن هذه الصورة الذهنية لا تحصل الا بعد ان ننزع منها الشكل والوزن واللون وغير ذلك حتى نجعلها قابلة للتطبيق على كل كرسي فنحن ، كما يقول كيركيفور ، قد خلقنا الصورة الذهنية ولكن بالقضاء على الحقيقة الوجودية ، وانتقلنا بهذهالصورة من عالم الامكان الى عالم الاستحالة ، لان الكرسي بدون الصفات الذاتية له لا يمكن ان يكون له وجود . ولذلك فمن الخطأ الابتداء من الصورة الذهنية للاستدلال على الوجود، بل يجب الابتداء بالحقائق الوجودية اولا .

وقد عاب الوجوديون على رجال العلم ، ورجال تحكيم العقل والفلاسفة اليقينيين ، تقسيمهم الوجود الى قسمين: قسم فاعل كالاشياء التي تقع تحت الحس ، وقسم انفعالي يقع في داخل النفس والفكر ويقول الوجوديون ان الحقيقة الموضوعية المجردة لا وجود لها لانها في اخر الامر تكون صادرة عن الشخص المنفعل . ويقولون ان الحقيقة متى عرفت مني كانت حقيقتي ، ولم تعد حقيقة بالمعنى المجرد المعروف . ويقولون ان الحقيقة اذا كانت حقيقة مجردة لا يمكن ان تكون حقيقتي . فهذان القولان من شأنهما ان يقضيا على الفكرة القائلة بوجود حقيقة وجودية منعزلة او مجردة : لانهم يرون ان النفس البشرية هي اولا (موجودة) و (عائشة) قبل ان تكون مفكرة ، وان الانسان جسم قبل ان يكون حساسا روحيا . فالمهم في حياة الانسان هو انه خاص بنفسه له اختباراته الخاصة في وضع خاص ، وهو في هذا الوضع يسعى الى حل مشكلاته بحسب ارائه التي يكونها لنفسه بنفسه . وهذه الاراء هي نتيجة الاحتكاك والتفاعل مع هذا الوضع الخاص ، فهي

اراء خاصة وليست عامة ، تنطبق على وضع خاص ولا تنطبق على جميع الاوضاع . وهي اراء انسانية في ظروف معينة ، تكون نتيجة تفاعل الانسان في عالمه الاصفر مع ظروف المحيط او البيئة الخاصة في العالم الاكبر . وكل شيء في العالم الاكبر يكون له معنى وجودي اذا كان هذا الشيء له منفعة يدركها الانسان . فالانسان مثلا اذا رأى كرسيا فيما حوله ، فهو لا يفكر لاول وهلة في تكوين الكرسي المادي ثم بعد ذلك يستنتج الغرض من وجود الكرسي ، ولكنه يدرك اولا ان الكرسي هو للجلوس عليه ، وهذا هو الغرض من وجود هذا الماعون . فالمنفعة من الاشياء هي اساس النظام في هذا العالم . كما يقول هايدكر ، بل ان العالم في رأي هذا الفيلسوف الوجودي هو (عالم المواعين) او عالم الادوات التي ينتفع بها والاشياء التي تستخدم لاغراض معينة. ويوافق على ذلك الفيلسوف الوجودي الاخر جان بول سارتر الفرنسي .

فالعالم الاكبر المطلق الذي يسمى احيانا في الفلسفة الغربية بكلمة Cosmos ليس له وجود عند الفلاسفة الوجوديين وانما توجد عوالم كبرى تتنوع بتنوع الافراد . وفي رأي سارتر ان العالم انساني فردي ، ولذلك فأنه ليس بالعالم المعروف . وعلى ذلك فالعالم في زمن النهضة الاوروبية هو غير العالم في زمن الثورة الصناعية ، او عالم الثورة الفرنسية ، او عالم نابليون او عالمي انا او عالمك انت ، وهكذا . وحيث ان العالم الاكبر المطلق غير موجود ، فالعوالم الكبرى متعددة متنوعة بحسب تنوع الاشخاص ، ولذلك فان الافراد يعيشون كأن كل واحد منهم يعيش في عالم خاص به . ولا يقتصر ذلك على تنوع العالم، بل يتجاوزه الى ان الحقيقة المجردة الموضوعية لا وجود لها ، وانما توجد الحقيقة المتنوعة بحسب الاشخاص المختلفين . وعلى هذا الاساس الذي يجعل الحقيقة انفعالية شخصية لمدة معينة يعيشها الشخص فأن المعرفة يجب ان تفسر بحسب الادوار التاريخية لان هذه المعرفة تختلف من دور الى دور . وحينئذ يصبح التاريخ عبارة عن اجزاء صغيرة من الزمن ، كالاجزاء التي سماها لايبنتس باسم (موناد) . وتصبح المعرفة كما قلنا معرفة ظرفية مقرونة بزمن معين واشخاص معينين . وعلى ذلك فان العلم المعماري يكون يونانيا او عربيا او زمن النهضة او في عصر السفر في الفضاء او غير ذلك بحسب الازمان والناس ، ولا يوجد علم مطلق عام وكل شيء في هذا العالم موقت غير ثابت . حتى ان الفضيلة او الرذيلة، كما يقول ياسبرز الالماني لا توجد على شكل مطلق كما يظن البعض ، وانما توجد مختلفة بحسب الزمان والاشخاص ، وبحسب القيم المختلفة في كل عصر . وهذا شبيه بقول العالم الفرنسي دركيم عن الاديان القديمة . فأنه لا يوجد شيء اسمه دين كاذب او دين صحيح من هذه الاديان البدائية ، لان كل دين كان يوافق الزمان الذي وجد فيه

صوت من السماء

الى فيروز

نثرت قلبي على مغناك ريحانا — لا تتركيه الى عينيك ظمآنا

فيروز يا نغمة كالفجر صافية — رفي رجاء على الارواح ريانا

آيات صوتك شتى في مفاتنها — سبحان من صاغ هذا الصوت سبحانا!

لبنان اطاق في الدنيا بلابله — فكنت احسنها شكلا والوانا

حملته خفقة في القلب والهة — وانساب في صوتك الشعري الحانا

يا فتنة الارز ما غنيت قافية — الا تراقص هذا القلب نشوانا

احببت لبنان لم اشرك به بلدا — لولا عيونك ما وحدت لبنانا !

بوانس ايرس — زكي قنصل

والاشخاص الذين يؤمنون به ، فهو اقرب ان يكون صحيحا بحسب المعايير الموجودة في زمانه من ان يكون دينا كاذبا او فاسدا بحسب المعايير الموجودة في زماننا .

والنظرة الوجودية في هذه المناسبة ترمي الى هدف اخر ، وهو ان الانسان لا يمكن ان يعيش عيشته الخاصة بحسب كيانه الذاتي الا اذا تحرر من تقاليد الماضي واعتباراته ورفع عن عينيه غشاوة الماضي ، حتى يتحرر من كل قيد ويكون لزمام نفسه بنفسه . او هو يجب ان يكون مثل (أورستيز) في رواية « الذباب » لسارتر « حرا من جميع العبوديات والاعتقادات ، بدون اسرة او بلاد او دين . » وهذا الوضع الذي يجد فيه الانسان نفسه طليقا من كل قيد يخلق فراغا شاملا ، لا يجد فيه الانسان موضع قدم يرتكز عليه ، ويجد نفسه حرا هائما على وجهه ليس لديه من القيم السابقة ما يهديه الى سواء السبيل . فهو يعيش في هذا الوجود في أول الامر ، وحيدا في صحراء معماة لا معالم فيها يهتدى بها في الوصول الى النجاة ، الى ان يدرك الخطر المحيط به فيهتم بنفسه انقاذا لها ويخلق من اليأس املا ومن الوحدة والخوف شجاعة واقداما للتغلب على هذا الموقف العصيب . فالوجود ، بعد فقدان المبادىء والتقاليد ، يجابه الفرد بفراغ شامل اولا ويواجهه بوحشة وخوف شديد من الوحدة ثانيا . وفي هذه الاثناء يتطرق الى الشخص يأس من الحياة ، لا يدري ماذا يفعل بهذه الحرية التي فرضت عليه . ويمضي عليه زمان وهو في هذا اليأس وهذه الحرية القاتلة ، الى أن يرتد اليه عزمه ويخلق من اليأس املا ، فينطلق دفعة واحدة الى عالم الوجود الحقيقي . ولا بد له قبل الانطلاق ان يبتدع لنفسه مبادىء جديدة يسير عليها في حياته الجديدة . وسارتر يقول في هذه المناسبة ان الفرد بعد أن يجتاز محنة الوحدة والفراغ والحرية يجب عليه ان يصمم العزم على ان يعمل ما يشاء ولكن باخلاص وصدق نية . والحقيقة اذا لم تكن متيسرة ، فيجب على الفرد ان يأخذ باقرب حقيقة يراها هو ، ومتى اخذ هو بها أصبحت حقيقته ولم تعد حقيقة مجردة .

هذا من حيث ان الحقيقة اذا أخذ الانسان بها تصبح حقيقته هو ولا تبقى حقيقة مجردة . اما من حيث ان حقيقة الانسان الخاصة لا يمكن ان تكون حقيقة موضوعية مجردة فهذا طرف آخر للمشكلة نفسها . ويتضح ذلك اذا وجد الانسان نفسه في موقف عصيب جدا ، كأن يرى نفسه كما رأى جحدر اللعن نفسه، امام أسد كاسر يريد افتراسه. فحقيقة الحياة هنا تتجلى بأجلى مظاهرها ، ويصبح للوجود معنى شديد ، ويشعر الانسان بوجوده الذاتي شعورا بالغا في الحدة . وتكون مشاعره واحساساته مرهفة للغاية ، ويكون اهتمامه بنفسه بالغا اقصى الحدود . في هذه الحالة تكون الحقيقة حقيقة خاصة لا حقيقة مجردة موضوعية ، وفي هذه الحالة يكون الانسان اقرب الى معرفة الحقيقة الوجودية منه في اية حالة اخرى عادية . واهتمام الانسان بنفسه في هذه المحنة هو الاساس الذي به يعرّف الوجوديون معنى (النفس) او (الكيان النفسي) . وهذا الاهتمام هو الفرض الاسمى في الوجود .

ومن اقوال كيركيغور عن ان الحقيقة شخصية غير موضوعية قوله ان الشخص اذا صلى بروح غير صادقة ولو كان مؤمنا بالله ، وان شخصا آخر صلى بروح صادقة ولو كان وثنيا ، فالشخص الذي صلى صادقا هو اقرب الى الحقيقة ولو كان وثنيا .

لندن — حسن الكرمي



محمد رجب البيومي

المرصفي شيخ ادباء مصر

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

ما اظن استاذا من اساتذة الازهر رزق الحظوة في تلاميذه، والنجابة في اشباله، كما رزقهما الاستاذان محمد عبده وسيد بن علي المرصفي، فقد كانت دروس الاستاذ الامام في تفسير كتاب الله حقلا خصيبا انتج في ميدان الاصلاح والتشريع اساتذة اعلاما حملوا الراية وتقدموا الركب، وحسبك ان يكون منهم على سبيل المثال محمد مصطفى المراغي وعبد المجيد سليم ومحمد رشيد رضا ومصطفى عبد الرازق، كما كانت دروس السيد المرصفي روضا يانعا آتى اكله الشهي فانتج رياحين وازاهر ذات عبق شذي، ومنظر موفق، وحسبك ان يذكر من ابنائه في مجال الزعامة الفكرية، والقيادة الادبية مصطفى لطفي المنفلوطي واحمد حسن الزيات وطه حسين وعبد العزيز البشري وعلي عبد الرازق وزكي مبارك، وان يذكر منهم في مضمار التحقيق العلمي ونشر آثار السلف في اللغة والدين محمود حسن الزناتي واحمد محمد شاكر وحسن السندوبي ومحمد محي الدين عبد الحميد وان يذكر منهم في دنيا الصحافة والتحرير محمد الههياوي وعبد الرحمن البرقوقي ومحمد ابراهيم هلال وفهيم قنديل، اما الشعراء المجيدون من طلابه، فانت تعد منهم ولا تعدهم اذ تستطيع ان تختار على سبيل المثال حسن القاياتي واحمد الزين وعلي الجارم واحمد شفيع السيد وابراهيم الدباغ ورمزي نظيم، واستاذ كالمرصفي يترك هذه المؤلفات الحية من الافذاذ تنشر معارفه، وتذيع هديه، حقيق ان يكتب له في سجل التاريخ الادبي المعاصر، صحيفة وضاءة تتألق سطورها بالزهو والاعتزاز.

لقد استطاع سيد بن علي ان يعيد الى القاهرة في مطلع هذا القرن مجالس بغداد في اسطع عصورها الزاهية، فكنت تتخيله وقد عكف وحده بين زملائه الشيوخ على دراسة الادب واللغة اماما كبيرا في صدور السلف كأبي عمرو وابي عبيدة والاصمعي والخليل والمبرد فهو يروي الشعر الجزل، ويناقش التركيب الناشز، ويعالج اللفظ الغريب، ويرد النسبة المخطئة الى وضعها الصحيح، ويناقش بعض ما اتفق عليه من قواعد الفقه والتصريف في ثقة خارقة، وعن بصر نفاذ، ولعله كان اشبه اسلافه بابي عمرو بن العلاء ويونس ابن حبيب، فقد كانا يؤثران ادب العصر الجاهلي ويفضلانه، وكذلك كان للمرصفي بهذا الادب ولع مشغوف، وصبابة حنانة، وان كان تأخره الزمني قد اتاح له من استيعاب المعارف المتشعبة في مختلف فنون اللغة وابواب العلوم ما لم يتيسر لهما من قبل، فأينع درسه بكل شهي من ثمار المعرفة، وراى فيه طلاب اللغة والادب موردا عذب المشرع صافي النمير.

على ان ناحية العجب في تاريخ الرجل انه كان فذا غريبا بين لداته، فقد كانت حلقات الشيوخ من حوله تبدىء وتعيد في دراسة حواشي مستفيضة في الشريعة وعلوم اللسان، فلا تزيد على ان تعيد المكرور المألوف وتلوكه، واكثره قد تاه في بحر من المؤاخذات اللفظية، والاعتراضات السطحية، وتكلف الاحتمال البعيد، وتعسف الرد الناشز، اما دروس الادب والشعر فلم يلم بهما غير الشيخ في دروسه، وكان ينظر الى زملائه فيدهشه هذا التكالب المزدحم على دراسة الخلاف اللفظي، والتشقيق الفرضي، ويروعه ان ينصرف العلماء عن ادب اللغة وآثار المتقدمين من الاخباريين والرواة، وانه ليعبر عن ذلك فيقول في مقدمة كتابه « اسرار الحماسة »

« وقد رايت نفوس القوم مصروفة الى تحقيق المسائل العلمية، والمباحث العقلية والعليم عندهم من نظر الى الاستدلال، واكثر طرق الاحتمال، وولد ما لا يولد، واوجد من الافهام ما لا يوجد، ولو علموا — هداهم الله — ما علمناه من خصائص اللغة واساليبها وما اودعت من لطائف الاسرار في تراكيبها لهجروا تلك الكتب ذوات التنافر والتعقيد وغنموا لغة القرآن المجيد والحديث الحميد ».

وان رائدا بطلا يناهض هذا التيار القوي فيقف فريدا بدرس الادب واللغة موقف المزاحم المنافس حتى يجذب الانظار الى حلقته ويجمع الصفوة من الطلاب على مذهبه ان رائدا بطلا يفعل ذلك، لجدير ان يطلق اسمه على احدى

قاعات المحاضرات بكليات الازهر وان ينشأ كرسي باسمه في كلية اللغة العربية لدراسة آثاره ومنحاه وشروحه وان تطبع مؤلفاته المخطوطة ليعلم الناس اي اديب فذ كان المرصفي !! رحمه الله !

لقد كانت كتب الادب لعهد المرصفي اول هذا القرن مجفوة مهملة ، وكان اكثرها مخطوطا منسيا لا يجد النور في الحياة ، وبعض المطبوع منها على قلته رديء الطبع ، سيء التحريف ، كثير التصحيف ، فعمد المرصفي الى اكثرها صعوبة ، واوعرها مركبا فأخذ نفسه بدراستها دراسة ناقدة فاحصة ، فكان الكامل بين يديه يتم قصائده، ويشرح عويصه ، ويتعرض لنسبة الابيات ، ويترجم لصاحب الاثر ، ويشرح ما تركه المبرد دون ايضاح ، وكانت أمالي ابي علي القالي كذلك موضع اجتبائه ، يناقش لغوياتها المعماة ، ويعارض نصوصها المختلفة،ويبحث في المخطوطات المتآكلة عما غاب من القصائد ، فيكمل ما نقص ، وقل مثل ذلك في حماسة ابي تمام وعقد ابن عبد ربه واراجيز رؤبة والعجاج مما ترك اكثره مخطوطا في ظلمات النسيان !! حتى جعل للادب في الازهر ركنا متين الدعائم ، وكانت حالته به اذ ذاك مدهشة مذهلة ، يصفها الاستاذ عبد العزيز البشري بالرسالة (١) فيقول : « والادب في ذلك الوقت ان تقول شعرا مقفى موزونا ، فاذا اعوزك العروض وعميت عليك اوزان الشعر ، فحسبك ان يكون المصراع في طول المصراع على شرط ان تتغزل ، فتتغزل كلما طلبت مديحا او رثاء او هجاء ، وكان الادب يحمد من (المجاور) عند أشياخه الا ان يسرف فيه ويجرد له صدرا من وقته، فانهم كانوا يكرهون ذلك منه ، لانه في الواقع يشغله بقدر ما عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار ، ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح) وحسبه في العام قصيدة يمدح بها شيخه يوم يختم الكتاب ، وقصيدة او اثنتين يرثي بهما من يموت من علية العلماء ، فاذا امكن الاستاذ المرصفي في هذا الوسط المعرض ان يجعل مؤلفات المبرد وابي علي وابي تمام وابن عبد ربه تجد مكانها بين حواشي الاسنوي والصبان والباجوري والسيوطي والعطار ، فذلك فضل كبير . وأنت حين تحاول ان تدرس الخطوط الاولى لحياة الشيخ ، لا تجد ما تطمئن اليه مما كتب عنه او تناقله تلاميذه ، فجميع من حدثتهم عن نشأة الاستاذ العلمية يذكرون انه تتلمذ في الادب عن السيد عبد الهادي نجا الابياري احد علماء الازهر وادبائه ، وانه تأثر به تأثرا دفعه الى الاكباب على دراسة آثار السلف المتقدم في اللغة والشعر وانا شخصيا ــ وقد اكون مخطئا ــ لا استطيع ان اقر ذلك ، اذ ان ما لدينا من انتاج الاستاذ الابياري شعرا ونثرا وتأليفا ، يخالف منهج المرصفي ومنحاه ، بل يقف منه موقف النقيض من النقيض ، فنثره مثقل بالبديع المستكره ، وشعره نمط من الطراز المملوكي في سطحيته وتكلفه ، وتآليفه ضرب من الثقافة الغابرة التي تفضل القشور على اللباب ، ويكفي أن تعرف انه اصدر كتابا في مجلدين كبيرين جعله يدور على لغز ذهني في اسم الخديوي اسماعيل ، ثم استطرد فذكر فنونا من القول لا يجمعها في نطاق واحد غير التكلف والارهاق ، وقد يكون الرجل معذورا فيما يصنع ، لانه يمثل ثقافة عصره واتجاه معاصريه ولكنه مع ذلك لا يمكن ان يتخرج على يديه اديب فحل مطبوع كالمرصفي العظيم ، وربما اكب الطالب على حلقات استاذه في طفولته الادبية ، ثم بدا له ان يتحول عنها دون ان تترك اثرا ما في اتجاهه وتسربه وكم من تلاميذ شافهوا بعض الاساتذة دون أن ينتفعوا بمذهبهم في الراي ، ونظراتهم للعلم ، وقد هداني الرأي المتئد الى ان اميل الى ان الاستاذ حسين المرصفي الاول صاحب (الوسيلة الادبية) هو استاذ المرصفي الثاني وملهمه ، فصاحب الوسيلة قد شذ على متعارف حيأته ، ورجع بالشعر الى اخصب عصوره في الادب العباسي ، وعلى يديه تخرج البارودي شاعرا فحل التركيب ناصع العبارة ، رائع البيان ، والرجلان بعد من قرية واحدة ، وللكبير مكانة لدى الصغير فلا بد ان تكون الوسيلة الادبية قد هدت صاحب رغبة الآمل الى معين لا ينضب من البيان ، فبحث عن الادب اللباب مما حوته بادئا ، ثم تخطى العصر العباسي الى عصري الجاهلية وصدر الاسلام فذهبا باعجابه كل مذهب ، وطفق يبحث عما ضم ادبهما من الكتب فقرأ القديم من آثار الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابي الفرج ، وتخرج وحده على هذه الآثار السلفية اديبا فحلا ، وناقدا لا يشق له غبار ، على ان هذا الهيام الكلف بكتب اللغة والادب لم يمنعه ان يدرس حواشي الشريعة والاصول ويلم بالنحو والصرف الماما من يدرك القاعدة العلمية ادراك الناقد المتفرس ، ونظرة منصفة الى شرح الكامل تدل على ثقافة الرجل واحاطته ، فهو يناقش سيبويه والمبرد وابن جنى والمازني والخليل في دقائق غامضة من قواعد النحو والتصريف ، فيناهض دليلا بدليل ، وقاعدة بقاعدة حتى ليخيل الى القارىء ان الرجل صاحب نحو فقط ، وليس اديبا جامعا يأخذ من كل فن بجوهره الاصيل .

واذا كنت لم اقف على ترجمة دقيقة لتاريخ الاستاذ ،

---

(١) الرسالة العدد ٦٩ سنة ١٩٣٤ . (٢) الرسالة العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ . (٣) الرسالة العدد ٦٩٦ . (٤) الرسالة العدد ٣٩٨ . (٥) كان المرصفي يسميه « العقد » بضم العين وفتح القاف . (٦) رغبة الآمل ج ١ ص ٣٨ . (٧) رغبة الامل ج ٣ ص ١١٦ وغيرها . (٨) رغبة الآمل ج ٢ ص ٢٣٥ وغيرها . (٩) رغبة الامل ج ٢ ص ١٨٣ وغيرها . (١٠) رغبة الامل ج ٥ ص ٢٨ . (١١) رغبة الآمل ج ٢ ص ٥١ . (١٢) رغبة الامل ج ٢ ص ٤٢ . (١٣) رغبة الامل ج ١ ص ٨٧ وغيرها. (١٤) رغبة الآمل ج ١ ص ١٤٨ ، ٢١٧ . (١٥) دارت معركة ادبية حول هذا الوهم بمجلة الرسالة السنة التاسعة سنة ١٩٤١ .

تأخذ بيدنا في تحديد مركزه الادبي في تاريخ الثقافة المعاصرة ، فان ما ذكره تلاميذه الكثيرون عنه ، في نبذ سريعة ، وشذرات موجزة تكفي لان تصور ملامحه اذا جمع بعضها الى بعض ، وهي بعد اقوال مخلصة لم تدفع بها رغبة مغرضة في تملق انسان ، اذ كتب اكثرها بعد وفاة الشيخ من ناحية ، وبعد ان اصبح المتحدث في منزلة ادبية تجعله فوق الملق الرخيص من ناحية ثانية ، على اننا لا نستطيع ان نسرد جميع ما قيل وانما نكتفي بالبعض عن الجميع ...

فالدكتور طه حسين يحدد مكانة استاذه بين نقاد اللغة واساتذة الادب في عصره فيقول في كتابه « تجديد ذكرى ابي العلاء » :

استاذنا الجليل سيد بن علي المرصفي اصح من عرفت بمصر فقها في اللغة ، واسلمهم ذوقا في النقد ، واصدقهم رأيا في الادب ، واكثرهم رواية للشعر ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الاسلام » .

ويعود الدكتور الى الحديث عن منهجه الادبي في مقدمة كتابه « الادب الجاهلي » فيقول « ومذهب القدماء ما كان يمثله الاستاذ الشيخ سيد المرصفي حين كان يفسر لتلاميذه في الازهر ديوان الحماسة لابي تمام . او كتاب الكامل للمبرد ، او كتاب الامالي لابي علي القالي ، ينحو في هذا التفسير مذهب اللغويين النقاد من قدماء المسلمين بالبصرة والكوفة وبغداد مع ميل شديد الى النقد والغريب ، وانصراف شديد عن النحو والصرف وما الف الازهريون من علوم البلاغة .

وكلام الدكتور عن استاذه يتفق مع حديث الاستاذ احمد حسن الزيات عنه اذ يقول (٢) « كان استاذنا المرصفي يطبعنا في النظم : على غرار الحماسة : وفي النثر على غرار الكامل ، ويزين لنا ان ننظم معلقة كطرفة او ننشىء خبرا كأبي عبيدة » . فشهادة هذين الاديبين الكبيرين تؤكد ان الرجل كان مولعا بالشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام ، كلفا بالغريب من القول والعويص من التراكيب ، متجها الى الذخائر السلفية العريقة في شرحه وتفسيره ، وان كنا نقف قليلا عند ما قاله الدكتور طه حسين بصدد انصرافه الشديد عن مباحث النحو والصرف لان ما لدينا من شرحه للكامل ، وهو في مجموعه صورة امينة لما القى في حلقات دراسته ، لا يؤكد هذا الانصراف الشديد ، فللمرصفي مع اعلام النحاة والصرفيين مواقف كثيرة تدل على الميل المقتصد لا على الانصراف العازف ، ولكنه لم يتخذ الحديث النحوي مجالا للمماحكة اللفظية والغرض الجدلي ، مما امتلأت به حواشي المتأخرين ، واتجه اليه زملاؤه من الازهريين ، بل نهج منهج الكسائي وسيبويه والمبرد في التصدي الى الجوهر دون العرض . اما طريقته البارعة في انشاد الشعر ، وشرح الغريب ، فقد الم اليها تلميذه الاستاذ محمود محمد شاكر حين قال عن استاذه(٣)

« وكان الشيخ حسن التقسيم للشعر حين يقرؤه ، فيقف حين ينبغي الوقوف ، ويمضي حيث تتصل المعاني فاذا سمعت الشعر وهو يقرؤه فهمته على ما فيه من غريب او غموض أو تقديم او تأخير او اعتراض فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج بعده الى شرح أو توقيف وكان في صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار ، وفي نبراته حين ينشد الشعر معنى الفهم للذي يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطىء المعاني التي ينطوي عليها، لانها عندئذ ممثلة لك في صوته» .

فاذا اردت بعد ذلك ان تعرف كلف طلابه بدرسه ، فاليك ما حدثنا به عنه استاذنا الكبير احمد شفيع السيد في احدى محاضراته بكلية اللغة العربية ، حين جاء ذكر المرصفي فأفاض في تعداد مواهبه ، وكان مما قال ـ معنى لا لفظا ـ : « ان درس الشيخ كان لا ينتهي بالازهر حتى يبتدىء في منزله ، لان افواج الطلاب كانوا يتزاحمون على السير معه في الطريق اذا نهض الى بيته ، فاذا اتاه دخل معه نجباء ابنائه فاخذوا تحيتهم العاجلة ، وظلوا واياه في سمر اوبي مشبع بالحب والاعتزاز ، وكانت الكتب الادبية تتراءى في حجرة الشيخ مركومة متراصة عن يمين وشمال، يقرأ فيها الطلاب كما يشاءون ، ويستعيرون ما يريدون في شغف نهم واقبال ودود » .

هذه نصوص مختلفة للاجلاء من تلاميذه المختارين ، واظنها ترسم صورة واضحة من منهجه وخلقه ، وقد ابدع الدكتور زكي مبارك ابداعا موفقا حين لخص ريادته الادبية وقيادته العلمية ، في مواقف محدودة ، فجاءت كلماته الصائبة في ايجازها الشامل لسان صدق وميزان تقويم فهو يقول : عن استاذه في اعتزاز (٤)

« كان الشيخ المرصفي اول رجل تسامى الى نقد مؤلفات الاكابر القدماء ، وكان اول رجل اقر كرسي الادب بالازهر الشريف وكان أول رجل جعل للاديب مكانة بين جماعة كبار العلماء فكان بتلك الصفات اوحد عصره بلا جدال » .

وتسامى الاستاذ رحمه الله الى نقد مؤلفات الاكابر القدماء كان حدثا غريبا في بابه ، اذ ان زملاءه حينئذ كانوا يتعبدون باقوال السلف من اولي العلم ، فاذا اضطراحدهم الى مخالفة مؤلف سابق جعل يتلمس له المعاذير ، في وجل وهيبة ، وكأنه يركب مطية ناشزة ، لا تؤمن معها الحياة ، فجاء السيد المرصفي ليحاسب المبرد وابا تمام وابا علي وابن عبد ربه محاسبة قوية مفحمة فهو في شروحه المتابعة للكامل والحماسة والامالي والعقد (٥) كان صلب المراس قوي المؤاخذة ، شديد العناد ، مما دفع ببعض المتسرعين من الاساتذة الى وصف الرجل بالغرور والادعاء !! واذا كان اكثر هذه الشروح الرائعة لا يزال مطمورا في دفائنه الخطية، فاننا نأمل ان يرى النور اذا فطنت اليه لجنة احياء التراث القديم في وزارة الثقافة والارشاد ، وحسبنا اليوم ان

نحكم على صنيعه بالمبرد في الكامل فهو الوثيقة الميسرة للباحثين ، وبه يتضح الحكم عن حيدة وانصاف .

لقد اعترف السيد المرصفي في مقدمة الجزء الاول من شرحه الكبير انه لم يجعل من رغبة الآمل شرحا تفسيريا لنصوص الكامل فقط بل اهتم « ببيان ما حاد فيه ابو العباس عن سنن الصواب من خطأ في الرواية ، وخطل في الدراية ، اذ كان المبرد يعتمد كثيرا في لفظه على جودة حفظه ، فربما نزع في غير فزاع عن القصد سهمه ، او صعد في الادب مرتقى زلت به الى الحضيض قدمه(٦) » .

فهو اذن يجعل من همه الاصيل باديء ذي بدء ان يكشف عن اخطاء المبرد ، معتقدا ان صنيعه هذا امر محتوم توجبه الدراسة الناقدة والنظرة الفاحصة ، ولو كان الشارح قد سجل على المبرد سقطاته ، وستر محاسنه ، لقلنا : انه متحيز ممالىء !! ولكن المرصفي ينصفه من خصومه تارة ، وينصف الحق منه تارة اخرى ، واذا كان لنا ان نميل عليه في شيء فاننا نؤاخذه على قسوة العبارة في كثير من التعليقات ، فقد كان من اللائق ان يطرد النقاش في هدوء العالم ، وسماحة الحليم !!.

على ان المسألة نفسية قبل كل شيء ، فقد يكون المرصفي اذ يكتب بعض التعليقات هاديء الخاطر مستريح البال من بعض هواجسه « فيقابل الخطأ الكبير من المبرد بكثير من التسامح ، فلا يزيد على ان يقول : غلط ابو العباس ، أو سها ابو العباس ، وقد يكون ضائق الصدر لبعض المحرجات من شئون الحياة فيضيق صدره لادنى سهو ، ويهاجم الخطأ اليسير مهاجمة قاسية ، فاذا نسب المبرد بيتا من الشعر لغير قائله ، قال المرصفي في غلظة : كذب المبرد (٧) ، واذا بدل سهوا كلمة مكان كلمة قال المرصفي في قسوة : هذا خلط وجهالة (٨) ، واذا رأى الناقد قولا في اللغة ينفرد به صاحب الكامل رده وقال هذا مما انفرد به (٩) !! ولست مع المرصفي في ذلك اذ ان من حفظ حجة على من لم يحفظ ، وقد يكون ابو العباس مطلعا على ما لم نطلع عليه مما غابت دفائنه ، وانقطعت روايته ، وأولى بالناقد ان ينظر اليه كراوية صدوق ، على ان نقد الناقد في اكثر مناحيه يرجع الى ذوق شخصي قبل ان يرجع الى وضع منهجي ، وقد ادركنا من قراءة الكامل وشرحه سعة علم المبرد وكثرة محفوظه كما لمسنا دقة فهم المرصفي ، ورقة ذوقه ، ومن هنا اتسع المجال امام الشارح للرد والمؤاخذة ، فقد جعل يوازن بين الروايتين ، ويفاضل بين النصين ، فيهديه ذوقه الى ما يرفض به رواية صاحبه عن ثقة واطمئنان ، فاذا روى المبرد — مثلا — قول الشاعر في هجاء الحجاج (١٠) :

اينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر

قال المرصفي : هذا خطأ والصواب رواية ياقوت في معجم البلدان ، وتعليمه صبية الكوثر ، قرية بالطائف كان الحجاج معلم صبيانها ، والحق مع المرصفي ، لان معلم القرآن الكريم لا يعلم سورة الكوثر فقط بل يعلم غيرها ، فلا وجه لتخصيصها بالذكر دون حادثة معينة يظن ان الشاعر قد اطلع اليها ، اما رواية صبية الكوثر فمنزهة عن الاعتراض ... واذا روى المبرد — ثانيا — قول القائل (١١) :

فيا بعل سلمى كم وكم باذاتها	**عدمتك من بعل تطيل اذاتي**
بنفسي حبيب حال بابك دونه	**تقطع نفسي دونه حسرات**
ووالله لولا أن يساء لرعتها	**بما ليس بالمأمون من فتكاتي**

قال المرصفي مهتديا بذوقه السليم ، الرواية لولا ان تساء لرعته ، وهذا حق ، لانه يقصد ترويع الزوج وافزاعه ، ويحرص على سلمى وهدوئها الامين . وقد يكون للفظ اللغوي معان مختلفة ، فيفهمه المبرد في سياق خاص على غير وجهه ، ولكن ذوق المبرد من ورائه يشير الى الخطأ في بصيرة نفاذة وفهم عميق ، وقد ذكر المبرد مثلا قول الشاعر (١٢) :

منعمة بيضاء لو دب محول على جلدها بضت مدارجه دما

فجعله شاهدا على ان بضت مأخوذة من بض يبض بضاضة بالفتح والكسر في المضارع اذا رق لونه وصفا ، ورآه المرصفي من بض يبض بالكسر فقط اذا ترشح من صخر او حجر والمصدر البض والبضيض لا البضاضة بمعناها الاول كما فهم المبرد ، وتلك لعمري دقة بالغة في الفهم تدعو الى الاحترام النزيه ولها نظائر واشباه (١٣) .

اما انصافه للمبرد ورده على خصومه ، فقد تكرر كثيرا في صفحات الكتاب (١٤) ، وهو برهاننا الذي لا يدفع على ان الرجل لا يريد انتقاص صاحبه ، ولا يتكلف الادعاء مفترا بما علم كما وهم الواهمون (١٥) ولكنها جمحات القلم في ظروف خاصة تدفع صاحبها الى بعض الشطط ثم يعاوده الهدوء المتزن ، فيميل الى النصفة والاعتدال ، ولو كان المرصفي يرى المبرد غير ثقة فيما يقول ، ما عكف على شرح الكامل وتدريسه ، فقطع زهرة شبابه في تفهم اسراره ، واكتناه مراميه ، وجاء شرحه الفخم في اجزائه الثمانية دليلا ملموسا على ان المبرد قد عاد الى الحياة مرة اخرى بالازهر واستبدل القاهرة بحاضرة العباسيين .

وقد عاش الرجل العظيم مقدرا مهيبا بين تلاميذه ورؤسائه ، مرموق المكانة في محيطه وامته ، فكان في شبابه موضع احترام الاستاذ الامام وتقديره ، ثم اختير في كهولته عضوا بارزا في جماعة كبار العلماء ليحفظ بها الادب مكانته ، ولم يفارق الحياة في سنة ١٩٣١ حتى رأى بعينيه ابناءه في حلقات الدرس يقودون زمام الرأي في مضمار الصحافة والتأليف ، ويتسنمون زعامة الفكر في اقطار العروبة ، فقر عينا بما غرس ، وأدرك ان دوحته الوارفة قد آتت من كل زوج بهيج .

الفيوم — دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

الهمسة الباكية

اليوم مر من هنا ..
هذا الذي احبنا
فاخضوضرت من خطوه دروبنا
وطافت الانسام تحكي سرنا
بالامس كان وحينا
وكأسنا وخمرنا ..
اين الذي صلاته كانت لنا
وحبه كان لنا ..
مذ زارنا ..
حلّ الشذا بارضنا
مر صداه من هنا
يشبه اطياف المنى
تتبعه في ركبه كل الدنا
وحيدة .. امسيت ابكي دربنا
وحلمنا الملونا ..
فاليوم مر من هنا
ولم يعد يذكرنا ..
كانه .. بالامس ما احبنا

•

قرية الرخاء

يقول لي ... حبيبتي ..
يبادر الظلال فوق سفحنا تهيم
وتبعث الحياة
وجدول من لؤلؤ يسيل
يزرع في دروبنا سنابل الضياء
وكل من في قريتي يقبل الصباح
ويجمع الدموع في انامل الرجاء
سواعد تشق في صراعها الطريق
للخير والرخاء .
حبيبتي ... اخاف ان يزورنا الشتاء
اخاف من تشرين شهر الحزن والبكاء
فلنغترف من الحنين ما نشاء
فانت يا حبيبتي انفتاح
ونحن للربيع اغنياته الملاح
نبلسم الجراح ..
ليعمر الصفاء
في قريتي .. في قرية الرخاء
سنرتمي طفلين في سواعد السماء
سنقطف النجوم ..
ونشرب الغيوم
ناون الصباح والمساء
في قريتي .. في قرية الرخاء

•

مي مظفـر

بغداد ـ العراق

هذا الهدوء المرعب يحث على الهرب.
لكن الى اين .
يخيل اليها احيانا انهم جميعا صم بكم .
الى اين ؟

السلالم الطويلة تؤدي الى لا شيء مع ذلك كانت احيانا تفني طروبة وكانت العصافير تحلق بالجو ، غير بعيد .

الالوان تختفي فجأة . ستار يرفع عن جمجمة العينين .

في جوار قريب ، اصبح الان رقعة ترتفع عليها بكل صخم البنايات الضخمة كان فيما مضى مقبرة اليفة يلعب فيها اطفال الحي ، كانت اجنحة الملائكة الحجرية تبدو حانية رحيمة محبة ، وكان الباب الصدى غير مغلق والاراجيح منصوبة في كل مكان تقريبا ، فوق القبور كانت تتأرجح الاقدام الصغيرة ، وفي اقصى المقبرة كانت تعيش عائلة نحيلة الوجوه .

*

انهار كل شيء ، فليكن ما يكون.

*

في بحر زخم من العواطف ، من المشاعر ، كم تحلو السباحة ، في نعيم يتلألأ اشراقا . يشق المرء بجهد لذيذ طريقه ، لا سلالم .. بل قوة تتلاطم .

انهار كل شيء : فليكن ما يكون .

*

لا وقت للحب ، لا جو للحب ،

الكآبة ترسو فوق جدران البيوت ، في الطرقات . الناس يسيرون فردا أو جماعات يجمعهم فقدانهم للحب. يحكى أن فقدان الحب اجتاح المدينة فانبرت ذات يوم كل جماجم العالم تصارع احياء المدينة على البقاء . وضحكت عجوز شمطاء ضحكة جوفاء

*

قالت احدى السجينات : انا لا احلم بالاسواق . ان الاسواق فارغة خاوية. يهمني الا آمل حتى لا اصاب بخيبة امل ذات يوم .

قالت ثانية : يخيل الي احيانا ان السوق عيد من اعياد الربيع السخية ، اجد نفسي منساقة الى السير اليه ، ينتشي قلبي لحظات بعبير عطور سحرية وفجأة اجد امامي الابواب كلها موصدة . وكان صرير مياه يسمع من بعيد ، صرير منتظم كدقات الساعة ، كسير الدماء في العروق .

وصاحت برعب : هذا غير محتمل

فهزت الثانية راسها قائلة : لا بد من صيحة جوفاء من حين الى حين .

*

قالت واحدة وكانت قرب الجدار منزوية : في كل مساء اتجمل . اعتقد احيانا اني اجمل امرأة في

المراعي الخضراء

بقلم الانسة رينه عبودي

المدينة ، زوجي بنى لي قصرا من الرخام المورد ، ارسل يطلبه من بلاد بعيدة . انه يصحبني في كل ليلة الى قصور افخم وافخم حيث تصاغ الحفلات لاجلي انا اجمل نساء المدينة لا احب زوجي الرجال يقبلون علي في الحفلات وعيونهم تلتهمني ، وفي كل فجر ابكي لقد مات الانسان الوحيد الذي أحب في هذا الوجود ، طفلي. كان في السادسة ، وكان طفلا وسيما اني اتفقده دائما ، ابقيت على غرفته المجاورة لغرفتي ، ابقيت على مكانه من المائدة ، ابقيت حتى على جثمانه انه يعيش الى قربي حياته الميتة ..

*

قصة

ومن بعيد تهادى صوت مزمار راع كان يقول :

الارض سهول وهضاب ، ما اعذب ان اتنفس هذا الهواء ، ما اروع ان امشي بكل بساطة على قدمي ، مقتربا رويدا رويدا من الافق الذهبي .

في قلبي اغنية ، اغنية لذيذة عذبة .. لوحتني الشمس ، قبلني المطر وضمتني الوف المرات ، كشجرة من اشجارها ، كحقل من حقولها ، الطبيعة .

ما اعذب ان اتنفس هذا الهواء ، الارض سهول وهضاب ، ما اروع ان امشي بكل بساطة على قدمي .

*

قالت احداهن قد تلاشى صوت الراعي : هذا الراعي يمر كل يوم .

قالت الثانية : بل انه لا يمر الا لماما

قالت المرأة : صوته يعيد لي تلك البهجة التي كنت اشعر بها حين كنت اعانق طفلي ، حين كنت اضم جسده الصغير الى قلبي .

قالت الاولى : لقد تسنى لي مرة ان اشاهد الراعي ، ان اسنانه بيضاء وفمه كأن يذكر بالمراعي الخضراء.

قالت الثانية : هل رايت المراعي الخضراء ؟

قالت الاولى : اعتقد اني رايتها منذ زمن بعيد . غير اني لم اكن على يقين منها ، اما الان فاعتقد جازما اني كنت في المراعي الخضراء .

قالت المرأة : هذا يحدث دائما ، او انه يحدث اكثر الاحيان .

وسمع صوت واحدة تنتحب غير بعيد ، كانت تقول :

ـ لم اعتد بعد على هذه الحال. لا استطيع صبرا وانا ارى نفسي مكبلة على هذا النحو . انني اتعذب

قالت الثانية : ان هذا يعود الى الصمت الذي اطبق علينا فجأة . لقد مر الراعي من هنا منذ قرون . هيا لنؤلف حلقة ولنصفق ونرقص

العش المهجور

الى الاديب الذي ترك مجاله الرحيب فـي ميدان الادب : وديع فلسطين

* * *

بعـد افياء روضة وغـديـر … كيف ترضى بلفحة من هجـير
انا اخشى عليك لفح البـوادي … انا اخشى عليك وقـد السعيـر
كيف ترضى من الخميلة بالجـد … ب ، ومن نبعها ببعض الصخور ؟
روضة الفكر جنة ذات معنـى … قدسي ، وذات قلب كبـير
تسـع الوافـدين يومـا اليها … بحنان رحب ، وحـب غـزيـر
يجد الظامئون فيهـا نطافـا … من رحيق ، وجدولا مــن نمير
يجد اللاهثون فيها من الحـر … مـلاذا للاجـىء المستجـير
يجد الحائرون فيهـا على الدرب … خلاصا مـن ربقـة الديجـور
فرحـاب مفروشـة بالدراري … وشعـاب مسكوبـة بالنـور
ومهـاد مضمخـات بعطـر … ونجـاد مرصوفـة بالزهـور
انهـا واحـة لكـل فـؤاد … مجهـد في حياته بالمسـير

* * *

ايها الهاجـر الخميلـة ! هـلا … قـد تريثت في القرار الخطير ؟
كنت مـن هـذه الخميلة حـرا … رائدا فـي مواكـب التحريـر
تهب الفكـر من اياديك شيئـا … هـو اسمى مـواهب التفكير
كيف تمشي الى القيود برجليك … وتسعى الـى حياة الاسير ؟
لـم يعـد بيننـا وبينـك الا … ذكـريات تحتـاج للتذكـيـر !
هـذه الومضة القوية تمسـي … بعض ذكرى مكتوبة في سطور ؟!
هذه النفحة الشذيـة تضحـى … بعض عطـر مبعثـر منثور ؟!
طـف كما شئت يا اخي وتنقل … وتقلب مـا شئت بـين البـدور
وتذوق ما تستحق مـن الخير … وما ترتجيـه مــن تقديـر . .
وتمتع بكـل فضـل عميـم … وتهنـأ بكـل خـير كثير
ثم لا تنس ان قلبـك يهفـو … بعـد هـذا لعشك المهجـور

القاهرة

محمد عبد الغني حسن

ان هذا يزيل الكابوس ، ألم نكـن نتأرجح في يوم من الايام على القبور

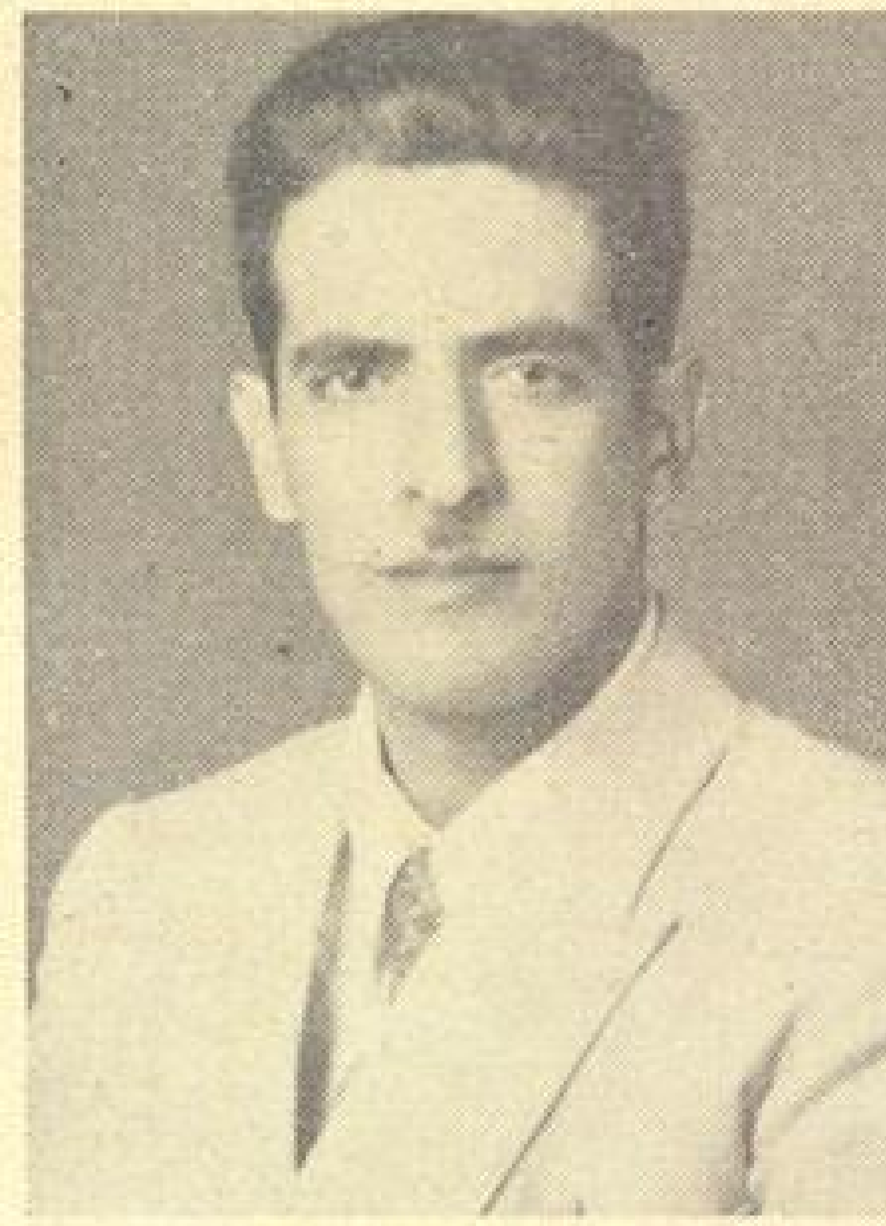
وقاطعها صوت باك قائلا : ان هذا الصرير يحطم اعصابي . انا لا اريد سماعه .

وتلفتت فيمـا حولها وارادت ان تهرب لكن عبثا ، كأن كل شـيء يقيدها الى جدار وهمي ، الى ضحكة عجوز جوفاء تصيح عاليا .

لكن الى اين ؟

حلب

رينه عبودي



احمد محمد الخليفة

احمد محمد الخليفة شاعر جزائر اللؤلؤ

بقلم قدري قلعجي

* * *

كانت الصحراء ، بلافح هجيرها ومتناوح رياحها وامتدادها اللامتناهي الذي هو التعبير الحي عن جبروت الطبيعة وقوتها الغلابة ، مبعث الوحي ومطاف الخيال ومنبع الالهام للشعراء العرب في مختلف عصورهم وديارهم .. حتى ابناء الحضارة المترفة في ربوع الاندلس ، لم يكن يحرك مشاعرهم وينير بصائرهم ، شيء مثل قصص الصحراء وقصائد الحداة .. فكيف بشاعر عاش في جوار بحر الرمال ، ولم يكن منبته الا واحة من واحاتها ، فأتتعوامل الطبيعة بصدماتها العنيفة وانهياراتها المخيفة ، ففصمت الواحة جزيرة يحتضنها الاوقيانوس ، فصما هو اقرب شيء لانتزاع الولد من احضان امه ، فظل لها بصرا شاخصا، وبقيت له جنانا خافقا ، في خلجة العواطفوحدب الامومة، وكفى بذلك تعاطفا وتآلفا ..

اما الشاعر الذي يجاوز بحر الرمال فهو احمد محمد خليفة صاحب « من اغاني البحرين » و «هجير وسراب » ، واما وطنه البحرين فهو الواحة التي اضحت جزيرة وظلت مع ذلك تحت كنف الام الكبرى ــ الصحراء ــ حيثوهج الهجير ومتراقص ظلال السراب ، لان ذاك الهجير وذلك السراب قد امتدا ظلا ظليلا في دنيا العروبة بنبضات افئدة ابنائها ، وومضات افكارهم ، وهاجسات نفوسهم ، تمثلا لقيم اخلاقية ومناقب وطنية ، واستشراقا لمعان انسانية من بعض معانيها التبتل في معبد الجمال والصلاة في هيكل الروح ..

لن نطيل الوقوف على حياة هذا الشاعر الذي لا يتمثل فيه الوجه الفتي لشباب البحرين فقط ، وانما نشعر بان ما يتجلى في شعره من انفتاح الذهن وانطلاق الروحيجعل منه صورة للشباب المتوثب في الوطن العربي الذي لا يفتأ يستجلي حوادثه ، ويعيش احداثه ، فلا يكاد يقع فيه أمر جلل الا كان له في نفسه صدى ولقوافيه منطلق .

واذا كان الشاعر هو الكائن الحي الذي ينشأ ويسعى في محيط معين ، ولا بد من الوقوف على منبته وتتبع نشاطه ، فقد كفانا الشاعر الصديق مؤونة ذلك ، فلخص لنا حياته بكلمات قليلة في رسالة شخصية قال فيها :

« واما حياتي .. فقد ولدت في قرية الجسرة حيث البحر الساجي ، وحيث الطبيعة الزاخرة بالجمالات ، ونزحت منها وأنا صغير الى قرية الزلاق الساحرة ، وهناك تفتحت مداركي على افاق شتى من الجمال والبحر والبساتين والمروج والروابي الخضراء ، فدرجت هيمانا بين كثبانها اقرأ في صفحات الافق الواحا من الشعر الالهي .. ومن هنا كنت شاعرا .. »

وهذه العبارة الموجزة التي تنطوي على العصامية الادبية، انما تتساوق نصا وروحا ورأي اديب الخليج الكبير وعملاق الكلمة فيه ، ابرهيم العريض ، اذ يقول في شاعرنا: « يتجسد في بردي صديقي الشاب صاحب « هجير وسراب » الاخلاص للشعر وعالمه السحري ، كما لم يتجسد في كل من نشأ وأنشأته ، وانه لمن بواعث اعتزاز « جزائر اللؤلؤ » ان يفصح عن امالها في كل مناسبة شريفة احد ابنائها البررة الذي ثقفوا انفسهم بانفسهم ، وفرضوا كيانهم فرضا على تاريخ بلادهم الادبي . اني عن كثب اتتبع تدرجه في مراقي النبوغ دائما بزهو واعجاب » .

غير ان الاجدى للقارىء ان ننتقل من حياة الشاعر ــ الكائن الى الشاعر ــ الفكر والعاطفة والاحاسيس ، في ذلك الوجه المنصوب للفح الهجير وطيوف السراب ، مرورا بدنيا العروبة من جزائر اللؤلؤ منبت الشاعر ، حتى ذلك الساحل الذي دفع فيه عقبة بن نافع فرسه خائضا غمرات اليم ، شاهرا سيفه لوجه الحق في وجه التاريخ الذي شد ما ظل كليم السويداء جريح الكبرياء ، لما اصاب الوطن العربي من التمزق والاسترقاق ، ولكن لا ليركن ذليلا كليلا في قبضة الظالمين من الدخلاء المستعمرين ، وانما ليتنزى تنزي الاسد المكبل باغلال المكر والخديعة ، يمتشق الحسام في قطر ، ويرهف اليراع في صقع ، تمردا على ذلك الواقع الذي دهم عالم العرب ، وقد خيم علية ظل الغرب حتى غدا الوطني غريبا في دياره والقومي مسلوب حمى ذماره :

أخا الصحراء ان الشرق امسى	**جريح الفرم مهدور الكرامه**
ونحن اليوم كالغرباء فيه	**وهل طابت لمغترب اقامه ؟..**

*** يتابع الكاتب بهذا الفصل سلسلة من الابحاث عن ادباء الخليج العربي ، ويسره ان يتلقى من ابناء هذه المنطقة الفنية بالكفايات ، آثار ادبائهم وسير حياتهم وكل ما يساعد على القاء النور على تلك الطاقات المنسية والمواهب المجهولة .**

واذا كانت تلك فاتحة عهد الاستعمار ، فان مأساة المآسي في ذلك الوطن ان يكون سادته النعاج مع مسترقي امتهم ذئابا على ابناء جلدتهم ، في صفحة من حياة كلها رياء وكذب وخداع :

لقد أخنى بنا قوم لئام ... وضمنا في اكفهم الزعامه
فساموا الهوان وما ظفرنا ... بشيء منهم غير الندامه
همُ فتحوا البلاد لكل باغ ... وخداع تزود بالملامه
اذا ما هش مبتسما لقوم ... رأيت المكر خلف الابتسامه

لكن اذا كان هذا هو الوجه السلبي لواقع العالم العربي القريب ، الذي غدا – ولله الحمد – بعيدا ، والذي تكاد الفاظ الشاعر تتلجلج تلجلجا في سياق العبارة تعبيرا عنه، حتى لكأن الصورة اللفظية انعكاس للواقع السياسي الراسف في الاغلال ، فان الشاعر الحر المؤمن ايمانا راسخا بمستقبل وطنه الكبير ، ليعرف كيف يضع متواضع لبناته في صرح مستقبله ، بالكلمة التي تهز اعماق الشعب :

أوقد الثار عزمنا فمشينا ... نقنص النجم فوق متن الرياح
علمتنا الايام ان نبذل الرو ... ح ، فداء لحقنا المستباح
ونقيم الاوطان في الذروة الشما ... ء ونحمي اركانها بالسلاح

وهو يعرف ان يعطي الجواب الحق ، في القول الفصل ، لذلك المتسائل ، وحبذا هو من سؤال ، ونعما هو من جواب نلمح فيه خفق رايات الحرية وتنكس اعلام الاستبداد:

قيل : ما ذاك الدوي ؟ فقالوا : ... ثورة الحق وانبثاق الرجاء
انه الشرق هب في موكب الام ... جاد باسم البطولة السمحاء

ويجلجل ذلك الصوت نفيرا للجهاد ، حتى لكأن فؤاد الشاعر خافق ديار العروبة النابض بالثورة المندلعة اللهب في كل منحنى من فجاجها وفي كل شبر من فسيح رقعتها:

وتعالى صوت الجهاد وضجت ... صيحة الثأر في السهول الفساح
وتغنى الحسام بالنغم الدامي ... لحونا على انين الجراح
ضجة تملأ الشعاب واجسا ... د تهاوت ملء الربى والبطاح
الجهاد الجهاد .. فالثور الحمراء ... تجلت في برجها المجتاح
غضبة الشعب ثورة تمحق ... الظلم بفجر البطولة اللماح

ومن خلال غضبة الشعب هذه ، والق الجهاد النازع للحق ، نلمح صورة المجاهد المقدام ببيان رائع التعبير وصفا لذلك البطل الذي امتشق حسامه للذود عن حياض الوطن:

لقد عهد الكماة وكل حر ... جسور القلب جبار الصرامه
اذا ما هب للاحداث يوما ... رأيت الارض قد طويت امامه
فجرد سيفك البتار حتى ... تعود لنا مقاليد الكرامه
ويصبح شرقك العربي مهدا ... الى رسل البطولة والشهامه

على الرغم من ان احمد محمد الخليفة قد سجل اغلب احداث عصره التي شملت دنيا العروبة في افراحها واتراحها ، واعراسها ومآتمها ، من جهاد مراكش الابية ، الى ثورة ابطال الجزائر ، فانتفاضة ارض الكنانة ، وانه كان احد شهود جريمة الصهيونية والاستعمار التي مثلت في ربوع بيت المقدس ، كما ذرف الدمعة الحرى على عدنان المالكي شهيد سورية الدائمة التفجر ، وكان له وقفات ووقفات على امجاد هذا الشرق الثائر ، فقد ظلت في قلبه زوايا نذرها للتبتل في محراب الهوى ومعبد الجمال . وقد اطال الاعتكاف في هيكل الطبيعة يتجهد بصلوات روحية لاقانيم الحب والحق والجمال ، تكاد تذكرنا باغاني الصوفيين الرائعة :

سكرنا وما في الكاس شيء من الخمر ... وغنت لنا الاحلام من حيث لا ندري

وينطلق الشاعر – وخاطره دنيا خيالات واحلام ورؤى سحرية – بلبلا غريدا في الفضاء الطلق ، والطبيعة عرس زاخر بالحياة ، مشحون بالقافية الروحية ، يلتقي في افقه الشمس والقمر معا ، وهو لا يدري ان كان يعيش سحر بابل ام حلم ليلة القدر ، لانه يعيش استغراق لحظات الهوى القدسية ، وقد اسندت ملهمته رأسها الى صدره، فانطلقت قيثارة روحه تسيل الحانا عبقرية الالهام ، فذة المعاني ، علوية الايحاء ، رائعة البيان :

وقفت اشيع الفكر في كنه ما ارى ... وفي خاطري دنيا تموج من الشعر
افي اي دنيا نحن نلهو ، فانني ... اهيم بارض حار في كنهها فكري
افي بابل حيث المساحر جمة ... يطوف بنا هاروت في هيكل السحر
ام الارض ناجتها الملائك فاكتست ... بفتنتها ام هذه ليلة القدر ؟!
ام الكون مزدان بميلاد شاعر ، ... ام الشمس خلف الليل تحلم بالفجر!
نسير على الشاطىء الطروب كأننا ... نطوف على الاكوان في زورق يجري
افاتنتي ان الطبيعة لم تزل ... تنادي بنا: ناموا على موكب الزهر
وقد سكر السمار عنا ولم نجد ... سوانا، ففني بالهوى واسكبي خمري
اما تذكرين الآن كالحلم ليلة ... سهرنا بها والراس منك على صدري
وكفك في كفي وطرفك مغمض ... وثغرك يستوحي اللذاذة من ثغري
وقبلتها والبدر يهفو بضوئه ... علينا ، ونحن جالسان على الصخر
فقالت : اما يكفيك في الخد قبلة ... وفي الثغر اخرى؟ قلت: ذي قبلة النحر!

ومن الرائع حقا ، ان الشاعر في انطلاقه الروحي ، وشدوه على فن الهوى ، قد عرف أن يجمع في شخص الحبيب جمال الطبيعة الى بديع المعنى ، كانما هي طاقة مادية فذة ، في شحنة روحية عبقرية ، فيها جمال الصباح ، ونفوذ الشعاع ، ورعشة السرور ، كانما هي علوية التكوين وليست من جبلة الصلصال والطين :

وجهك الطاهر المضيء تجلى ... في حياتي ومنه سر المعاني
فهو في جبهة الوجود صباح ... وهو في مبسم الحياة اغاني
انت فيض من السرور لروحي ... وشعاع من المنى في جناني
انت اشراقة من الملا الاعلى ... تباهي بضوئها النيران

لكن شيطانة الفن هذه قد عرفت كيف تغزو قلب الشاعر، وكيف تشد على اوتار قيثاره لتسيل انغامها جمة التلوين ، وايقاعاتها مختلفة الالحان والالوان ، تشيع في نفسه السرور الذي هو حفيف اجنحة الملائكة ، وتلامس مواضع الالم في مكامن الاحساس فيه ، فتذوب نفسه بشجي النغم الذي هو حشاشة نفس مرتلة بحزن يمس شغاف قلب القارىء مسا رفيقا هو المتعة الروحية الخالصة ، لان ذاك الحزن نجوى الروح للروح ، وقد التقتا على لحن القبلة الاولى الذي يجمع في قراره سر الاوتار جميعا وكنه الالحان طرا :

فانا الشاعر المضيع نفسي ... بين ليل الهوى وفجر الاماني
كلما ناح في الصباح هزار ... كنت نهبا لثورة الاحزان ..
روحيني فقد سئمت حياة ... مائت بالفراغ والحرمان
قربي ثغرك الجميل ففيه ... كوثر سال من رحيق الجنان
قبلات سكرى تناغي شبابينا ... على غنوة الربيع الهاني

قبـلات رتيبـة تتـلاقـى — فـي ظـلال الشباب والعنفوان
آه لـو تعلمين عـن سر هـذي القبلة البكر في ضمير الزمان
تتغنـى الارواح للقبلـة الاولى — علـى هيكـل المنى والتهاني
وتـناجي في عالم الخلد ارواحـا تـزف الحبور للاكـوان
هـي لحـن الحيـاة فـي هـذه الدنيـا وهمس الارواح للابدان

واذا كانت هذه الانغام مزيجا من الامل والياس ، والترح العلوي الذي هو المتعة العظمى ، بنشوة هي مزيج من حرقة الوحدة ونعمة الاتصال ، فان للشاعر وقفات يائسة امام السراب يخيل اليه فيها ضياع احلامه وعبقري خيالاته :

بـددت احلامي الوضيئـة بعد ما — ضيعت في دنيا الهوى ايـامي
وتحطمـت مـن آهتـي قيثـارتي — في الليل وانكسرت كؤوس مدامي!
فطفقت مذهول الضمير أهيم في — وادي الاسى بمآلمـي وسقـامي
ووادت في الدنيا عرائس بهجتي — وهبطت من أفـق الخيال السامي
ورأيت في حلك الدجى قيثارتي — خرسـا اللحون حبيسة الانغام !

لكن اذا كان هكذا تكسر القيثار ، وانحباس لحن الاوتار ، فقد نعمنا نحن باللحن ، وطربنا لعلوي النغم !..

ولعل الشاعر ، حفاظا على قيثاره من اعادة التحطم ، وعلى انغامه من الانحباس في أوتارها ، أطلق لشيطـان شعره العنان واجاب على الهواجس الغيبية التي مرت بذهن الحبيب ، بذلك الجواب الذي ينضح من الدنان الخيامية ، الموحية باللذة الآنية والمتعة الراهنة :

قالت وقلبي ذاهـل من سحر مقلتها الكحيلـة
والطيـب يعبق في سمائي من غدائرها الجديلة
ماذا نكون غـدا اذا ماتت امانينا الجميلـة ،
وتحلل الجسد الطروب وذاب في الارض الثقيلة ؟
هل تنتهي احلامنـا وتـزول كالرؤيا البخيلة ،
ام هـل نعود لحبنا من غربـة الموت الطويلـة ؟
قلت: ارفعي الاقداح ، ليس لنا على الاقدار حيلة ،
نحـن نعيش ليومنـا في دوحة الامل الظليلـة !..

لم يتميز شعر احمد محمد الخليفة بلفحاته الوطنيـة القومية فحسب ، ولا بنفحات ذلك الحب العارم الذي غمر كل كيانه فقط ، وانما هام بآيات الطبيعة هياما ملك عليه مشاعره ، حتى لكأنه من القائلين بوحدة الوجود ، لان قلبه ليس موقوفا على مشاهد بعينها او مناظر بذاتها من وجوه الطبيعة التي لا يدركها الفد أو تدخل تحت احصاء ، وانما هو يحيى كل ذرة من ذرات هذه الارض ، فيه شيء من صداح الطير ، وجمال المروج ، وتفتح قلب الربيع ، وسحر الصيف على الشاطىء الخلاب ، ورفيف اجنحة الفراش ، يرى في كل فصل من فصول السنة روائع تستوقف نظره فيترجمها خرائد شعرية بديعة ، وهكذا يعيش آماد الزمان ويحيا مشاهد المكان :

انا احيا في كل ذرات هذه الارض لحنا مهوما مسموعا

ولا بدع ، فان الكتاب الاعظم الذي قراه الشاعر ما يزال يعيد تلاوته ، هو سفر الطبيعة . أولم يقل في رسالته الينا : « .. اقرا في صفحات الافق الواحا من الشعر الالهـي ، ومن هنا كنت شاعرا »

ومن تلك الالواح التي نقلها من صفحات الافق ، صوره المتعددة التي زين بها جمال الربيع ، كقوله :

ان الربيع رحيق الارض ان عطشت — فكـل دنيا الاماني تلتقي فيـه
تحلو ليالي الهوى في سحر منظره — وتستحـم الاماني في مآقيـه

وقوله في ربيع الهوى من قصيدة طويلة :

هذا ربيع الهوى النشوان مؤتلق — دع القواريـر ملأى مـن حمياه
يـا ليلة سكرت فيها النجوم ولم — نعرف منالسكر من ضلوا ومنتاهوا
غنـى المحبـون الا شاعرا قلقـا — ضوء النجوم الذي في الافق ابكاه
تذكـر الزمـن الماضـي وجيرته — يـوم النجـوم تغني ما تعاطـاه
لا لا تقولـوا بانـي شاعر غـزل — قد علمتني فنون الشعر عينـاه
فان نكـن قد جنينـا في تهتكنـا — ذنبـا ، فآدم حملنـا خطايـاه

وهذه صور وجدانية ، اما صوره المادية من زهر وعطر وماء ، فاكثر من ان تحصى ، ولكن الشاعر لا ينقلها لنا نقلا فوتوغرافيا ، وانما يضفي عليها شيئا من ذاته الفنية :

اني احس الكـون سكرا دافقـا — يسري ويحيي ماملي في خاطري
وأرى الروابيكالعرائس في الضحى — تختـال من ارج الربيـع الغامر
دعنـا الى هذا الجمال فانـنـي — اودعت فـي تلك البطاح مشاعري
وسكبـت الحانـي على ربواتهـا — فجرا ، وكـم غنيتهـا بمزاهري
وهفت لها روحي ترف وتستقـي — في الليـل من نبع الغدير الفائر
ان الربيـــع لـه معـان ثـرة — توحـي وتلهـم بالبيـان الساحر
ورد ونـوار وزهـر عـابـق — قد طاب في مسراه ليل السامر
كـل الازاهر تحتفـي بقدومـه — وتبش مـن دمع السحاب الماطر
وتعربـد الارواح فـي محرابـه — ليـلا لتنهـل مـن شذاه العاطر

واذا كان هذا هو الربيع ، فان للشاعر في الصيف اكثر من قصيدة ، وكل قافية فيها آية بيانية ، تصويرا لمعرض جمالي ، وهل هناك اروع من مشهد الشواطىء في الصيف وقد انتشرت فيها آيات الخالق المبدع بامتع منظر وابدع مشهد :

اقبل الصيف ضاحكا ينثر الاحلام والبشر والرضى والامانـي
ينثر الفتنة المثيرة في الارواح خمرا ما عتقت فـي الدنان
زف في هيكل الخلود وليدا يتهادى في روعـة المهرجـان
غنت الارض والسمـوات لما جاء في موكب الرضى والحنان
قيل : ماذا يناغم الكون بالافراح ؟ قالوا : ليل من الصيف داني
عرس في السماء هومت الاطياف مـن سحره علـى الاكـوان
فاضحكي يـا شواطىء البحر بشرا واجعلي الملتقى بكل مكان
وتغني للسامرين ابتهاجا وايقظي باللحـون روح الزمـان
ايها البحر انت لولا ليالي الصيف ما كنت ملعبا للغواني
انمـا الصيـف فتنـة وجمـال وصفـاء وفرحـة واغانـي
هو انشـودة مـن الخلد سكرى رددتهـا الارواح للابـدان
فيه تهفو الارواح في عالم النجوى وتسمو على رفيف الحنان
ايها الشاعر المفرد بالاشواق هيـا فانت رب الاغاني !

وفي قصيدة ، بل في اغنية اخرى ، يقول :

يـا حبيبـي اقبـل الصيف وغنتنـا الحياه
وتهـادى كـل صب يتغنـى بهـواه
قمر تشدو وعذارى السحر في مسرى ضياه
وسكـون حالـم لا يبلـغ الوهـم مـداه
يـا حبيبـي اي لحـن ردد الكـون صداه
وقعتـه شاديات الضـوء في سمـع المياه
انـه عـرس الصبا النشوان في فجر الحياه
انـه الصيـف الذي تستقبل الدنيـا صفاه
انـه يـدعو بنـا ان نتـلاقـى في سنـاه

(التتمة في صفحة ٥٦)

زحف الدخان

صفاء الحيدري

بغداد ـ العراق



يا هذه . يا يدي   تململي وامتدي
وامضى ولا ترتدي
هنا على المفرق   تحركي . اطلقي
فليس لي في غدي   غير أسى مزبد
ان ينتهي يبتدي

أمس انتظرنا هنا   سحابة من غنى
وضمة من منى
قمر بالمنحنى   غد وشد السنى
فانطفأت حولنا   تلك الرؤى والدنى

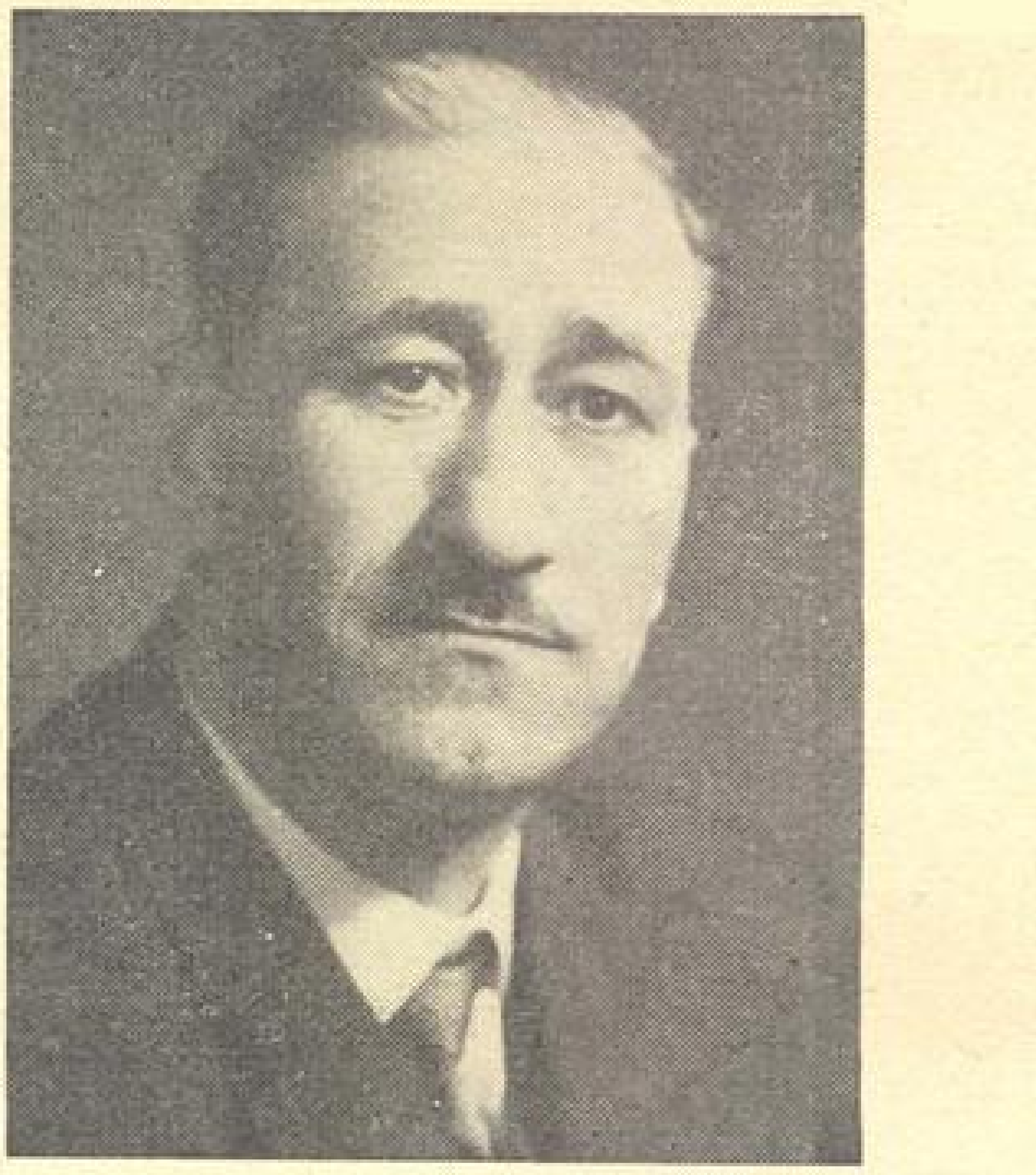
وعاد صمت الردى   يمضغ ذاك الصدى
لا زهرة لا ندى   أبقى ولا منشدا
الا السطور التي   تنبض في وحشتي
أسى سيبقى غدا   باب الهوى موصدا

جرثومة في دمي   تنقب في أعظمي
هيهات ان تندمي   يا نفس ان ترسمي
هنا على مبسمي   نهاية الموسم
ما عاد في البرعم   شيء ندي الفم

دوري على راحتي   يا أنت .. يا طلقتي
وانطلقي في فمي   وأنطفئي في دمي
لا تعبأي بعدها   انهض او ارتمي
فمهجتي واللسان   قد اسكتا من زمن
مذ عدت من رحلتي   لا اهل لي لا وطن
وناظراي اللذان   هما هنا شاشتان
يعرض زحف الدخان   رواية الزمان
كلاهما شاهدان   اني قميء جبان
لا صرخة لا ألم   ولا دوي أصم
ولا رؤى قارب   يشق تلك الظلم
لا قائل في سأم
أمس انتهى لا انسان   امس مضى للنسيان

أمس مضى سائح   عاش هنا كالغريب
يبذر أحلامه   في كل واد قريب
ولم يزل ينحني   كالصمت فوق الكثيب
لكنه لم يجد   ثمة الا النحيب
وكلما آن أن يرحل حان المغيب

لما أزل انتظر   يا أنت ان تنتحر
والنور في ناظري   معذب يحتضر
لا شمعة لا سنى   الاي الا أنا
أبحث عن هارب   ما عاد يعنى بنا
والليل حولي خطى   تنسل لا تنتظر
غدارتي هاهنا   عبأتها بالضنى
والطلقات التي   فيها مصيري انا



عيسى الناعوري

صور وشرح من كوميدية دانتي الالهية

بمناسبة الذكرى المئوية السابعة لمولد دانتي اليفييري

بقلم عيسى الناعوري

تحتفل ايطاليا في هذا العام ، ١٩٦٥ ، ويشاركها العالم المتحضر الذي امتلأ بشهرة شاعرها الاكبر والاعجاب به ، بالذكرى المئوية السابعة لمولد دانتي اليفييري . وقد خصصت ايطاليا هذا العام باكمله لتخليد ذكرى هذا الشاعر العظيم ، فدعته « عام دانتي اليفييري » ، كما كان العام الماضي ، ١٩٦٤ ، فيها عام الفنان الخالد ميكلانجلو . ومضت تقيم المعارض ، والمحاضرات ، والدراسات ، وتوجه السياحة ، والدعاية ، والنشر ، وكل ما تستطيعه من الوسائل ، حتى الدراسات الجامعية ، الكفيلة بجعل هذا العام جديرا بهذه المناسبة الكبيرة .

واحتفاء بهذه المناسبة الادبية الكبيرة رأيت ان اساهم بحظ بسيط للتعريف بدانتي ، واثره الادبي الاعظم الذي يتردد اسمه في العالم كله منذ سبعة قرون بين اعظم ادباء الدنيا ، بل في مقدمة الطليعة الفاتحة التي اطلعت للعالم فجر النهضة الاوروبية الحديثة . لقد كان دانتي من اهم بواعث النهضة ومطلعي فجرها في اوروبا من مدينته فيرنتسه ، في اواسط ايطاليا ، التي ما تزال تعتز وتفاخر بقدم قصورها ، وبعراقة تاريخها الذي يجعل منها مهد النهضة الحديثة في الغرب باسره ، لا في ايطاليا فحسب . ومشاركتي الان هي جولة في كوميدية دانتي الالهية باجزائها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس . وساقدم منها صوراً ، تمثل كل صورة نشيدا ، أو مشهدا من نشيد من اناشيد الكوميديا . وباستعراض هذه الصور ومعرفة شروحها نكون قد رافقنا الشاعر العظيم في رحلته كلها ، من مطلع الحلم الذي قاد خطاه في الغابة المظلمة قبل دخوله الجحيم ، حتى اللحظة التي انتهت فيها رحلته في الفردوس السماوي . ولعل هذا سيوفر على الكثيرين مهمة قراءة هذه الكوميدية التي هي بين اعظم نفائس الآداب العالمية ، او لعله ، على العكس ، سيكون من البواعث على قراءتها بلذة ونهم معاً ، كما تستحق فعلا .

وقبل ذلك نرى ان نقدم لمحة سريعة عن دانتي وآثاره الادبية ، لكي يكون تعريفنا به وتكريمنا له وافيين بقدر ما يسمح به المجال ، وكافيين لمن لم يتح له حتى الان ان يعرف دانتي معرفة وثيقة عن طريق دراسة آثاره دراسة صحيحة .

ولد دانتي اليفييري في مدينة فيرنتسه في ايطاليا عام ١٢٦٥ ، وتوفي في المنفى عام ١٣٢٢ وله من العمر سبعة وخمسون عاما ، قضى بعضها في الحكم والسياسة ، وقضى احدى وعشرين سنة منها في التشرد والحنين الى الوطن . وفي فترة التشرد هذه وضع ملهاته الخالدة « الكوميديا » التي دعيت في ما بعد باسم « الكوميديا الالهية » تقديرا لعظمتها الادبية . والذي أطلق عليها هذا الاسم هو الكاتب الايطالي الكبير بوكاتشيو ، معاصر دانتي ، وصاحب كتاب « الديكامرون » الشهير .

تتلخص حياة دانتي ، وكذلك ادبه ، في ثلاثة امور هي: الدين ، والحب ، والسياسة . فلقد أشتغل بالسياسة في حكم بلده وفي السفارة لها ، وامض نفسه الصراع بين ساستها واحزابها ، والحكم الاجنبي ، وتدخل البابوات في شؤون السياسة وفي تشجيع الانقسامات الحزبية في بلده . كما عاش عمره كله يحلم بعودة المجد الايطالي القديم بوحدة أيطاليا وقوتها وعظمتها ، ويرى في الشاعر الروماني فرجيل رمز عظمة الفكر الايطالي في زهوة مجده .

ومن حيث الدين كان عريقا في كاثوليكيته ، مؤمنا بانجيله ، واعيا أعمق الوعي واوسعه لعقيدته المسيحية ، متحمسا لها اشد التحمس رغم البلاء الذي ذاقه هو وذاقته بلده من بعض رجال الكنيسة الكبار ، وعلى الاخص من البابا بونيفاشيوس الثامن .

واحب دانتي بياتريشي بورتيناري وهو في التاسعة من عمره ، وهي دونه ببضعة اشهر فقط — كان عمرها ثماني سنوات وشهرا واحدا ، وعمره اقل بقليل من تسع سنوات حين التقيا لاول مرة ، وعرف الحب سبيله الى قلب الطفل الشاعر — وقد رافقه هذا الحب مدى الحياة ، على الرغم

* القيت هذه المحاضرة بدعوة من السفارة الايطالية في عمان في قاعة امانة العاصمة ، في عمان ، ثم في مدرسة السالزيان الصناعية في بيت لحم . مصحوبة بعرض عدد كبير من الصور المنتزعة من مختلف اناشيد الكوميديا . مع شروح لها وافية .

من انه تزوج ، وخلف اولادا وبنات ، وانغمس الى جانب ذلك بحياة الرذائل والملذات انغماسا غير قليل ، كما نعرف من عتاب بياتريشي له عند لقائهما خارج المطهر .

هذه الثلاثة معا : اي الدين ، والسياسة ، والحب ، تعاونت على انضاج فكره ، وتوسيع مداركه ، وتعميق احاسيسه ، وكانت ملهمته في جميع مؤلفاته التي نلخصها في ما يلي :

١ ـ الحياة الجديدة La vita nuova وهو قصة حبه لبياتريشي من بدايته الى نهايته ، وما نظمه من شعر ورآه من رؤى من وحي ذلك الحب الذي بدأ طفلا ولكنه لم ينته حتى بموت الشاعر العاشق ، بل طاف معه في آفاق العوالم الاخرى في كوميديته الالهية ، وظل خالدا فيها من بعده ، تردده الاجيال بتقدير وتقديس عميقين ، ونجد نحن الفرصة لنتحدث عنه بعد سبعة قرون من عمر التاريخ كشيء يلذ عنه الحديث ويعذب .

٢ ـ الوليمة Il Convivio وهو فصول واناشيد ، غايتها تبسيط العلوم للعامة ، فكأنها دعوة الى وليمة فكرية : شرابها الاناشيد ، وطعامها الشروح والتعليقات ، يقدمها دانتي الى قليلي الثقافة من مواطنيه. ولم يخل هذا الكتاب من اثر بياتريشي ومن الاشارة اليها ، والى انها ظهرت له بعد عامين من وفاتها فكان ذلك دافعا له الى الاستزادة من المعرفة . وكان خيال بياتريشي هو الذي املى عليه النشيد الاول من الوليمة ، بل لقد اوحى اليه باكثر من نشيد وباكثر من اشارة وتعليق فيها .

٣ ـ الكوميديا الالهية La Divina Commedia وهي قصة بحثه عن الحبيبة ، ووصوله اليها اخيرا عبر العوالم غير المنظورة ، وسعادته بمرافقتها في رحاب الفردوس ، وامام عرش الخالق . وهي ايضا قصة الصراع السياسي في بلده ، والناس الذين اساءوا الى شعبه وارضه ، فاستحقوا ان يخلد عذابهم في الجحيم ، والاخرين الذين احسنوا الى بلده فاستحقوا ان يرفعهم الى فردوس النعيم. وهي كذلك قصة تدينه العميق الذي جعل من صور العقاب والثواب في الكوميديا شرحا للعقيدة الكاثوليكية ليس اوفى منه ولا ادق ولا اعمق وعيا وادراكا ، فجاءت شروحه تثبيتا لاهوتيا للعقيدة ، وترسيخا لفكرة الثواب والعقاب فيها ، وللاماكن الاخروية التي يجري فيها الثواب والعقاب ، وهي اماكن لا يوجد بعضها ـ واعني المطهر واليمبس ـ في غير الديانة الكاثوليكية ، كما ان بعض انواع الذنوب وتسمياتها وعقوباتها هي ، في الغالب ، من خصوصيات الكاثوليكية . وهكذا فان دانتي قد استطاع بعمله الادبي الخالد هذا ان يخدم الكنيسة الكاثوليكية والعقيدة الكاثوليكية خدمات لم يستطعها الكثيرون جدا من اعظم رجال الكنيسة الكاثوليكية انفسهم ، وذلك بما اضفته الكوميديا من شروح عميقة التأثير على اللاهوت المسيحي ، وعلى فلسفة الثواب والعقاب المسيحية .

ولعل هنا مجالا لكي اذكر ان الذين ظنوا الكوميديا متأثرة ببعض المصادر الاسلامية، وعلى الاخص قصة الاسراء والمعراج ، ورسالة الغفران ، وفلسفة ابن عربي، لم يصيبوا الحقيقة في اعتقادي . واذا كان هناك مشابه محدودة جدا بين الكوميديا وهذه المصادر فهي لا تعدو المشابه الاصيلة التي بين الاسلام والمسيحية ـ وهي مشابه كثيرة جدا بحكم استمداد الدينين عقائدهما من مصدر سماوي واحد ـ فالديانتان تنبعان من اصل واحد ، وتؤمنان بكثير من العقائد المشتركة .

صحيح ان الكوميديا متأثرة باشياء اخرى سابقة ، ولكن أهم المصادر التي تأثرت بها كل التأثر هي : ١ ـ الفلسفة الكاثوليكية واللاهوت الكاثوليكي . ٢ ـ التوراة ، والانجيل واعمال الرسل ، ورؤيا القديس يوحنا . ٣ ـ الميثولوجيا اليونانية القديمة، وعلى الاخص الياذة هوميروس ،واوذيسته واينيادة فرجيل . الا ان تأثر الكوميديا بهذه الاساطير اليونانية ـ وهو بارز وواسع الى ابعد حد ـ انما كان تأثر العمل الفكري بالعمل الفكري ، لا تأثر العقيدة الدينية بالعقيدة الدينية ، فليس بين وثنية هوميروس وفرجيل ، وكاثوليكية دانتي اي تشابه في العقيدة ، وعلى الاخص في ما يتعلق بالعالم الاخر . الا ان هذا لا يمنع دانتي من استخدام الاشخاص والحيوانات والحكايات الاسطورية في رحلته في العالم الآخر ، كما سنرى ذلك في ما بعد . وكذلك استخدم دانتي ثقافته العلمية الواسعة في الكوميديا ، سواء في الفلك ، او التاريخ ، او الفلسفة ، او اللاهوت ، او الموسيقى ، او التشريح ، او ما الى ذلك . وقد كان دانتي ذا ثقافة واسعة جدا .

* * *

بعد هذا التمهيد أرى ان اقدم عرضا سريعا لرحلةدانتي في اليمبس وفي الجحيم ، وهي الجزء الاول منالكوميديا، لكي نرى بعد ذلك بعض الصور التي تعرض لنا مشاهد من اناشيد مختلفة من هذا الجزء قبل ان نمضي في استعراض الجزءين الباقيين .

تبدأ رحلة دانتي بأن يرى نفسه ، وهو في منتصف العمر ، في وسط غابة مظلمة متشابكة الاشجار ، ماضيا للبحث عن حبيبته بياتريشي . وفي وسط الغابة يصل الى طود عال تشرق عليه اشعة الشمس ، فيحاول ان يرتقيه ليسير في النور ، غير ان ثلاثة وحوش تسد عليه الطريق . وتلك الوحوش هي : أسد ، ونمر ، وذئبة ضاوية الجسم شديدة الجوع . فخاف دانتي وهم بالرجوع . وعندئذ ظهر له فجأة شاعره المفضل فرجيل ليقوده من طريق آخر سالكا به في شعاب الجحيم اولا ، ثم في المطهر ، وبعد ذلك يسلمه الى بياتريشي لتصعد به الى السماء .

ونتوقف هنا قليلا لنذكر ان كل ما في هذه المقدمة القصيرة ليس سوى رموز خلقية هي : الحسد ، وشهوة الجسد ، يمثلهما النمر ـ والكبرياء والغرور ، يمثلهما

الاسد ـ والبخل والجشع الـذي لا يشبع ، وتمثلهما الذئبة . واما فرجيل الذي قاد دانتي في رحلته فهو رمز العقل والحكمة ، وبياتريشي رمز المعرفة الالهية . وترمز قمة الطود التي تشرق عليها اشعة الشمس الى الحياة الفاضلة . ومن هنا نرى ان قسما كبيرا مهما من الكوميديا ليس سوى رموز تحتاج الى من يفسرها لكي تفهم على حقيقتها .

هذه المقدمة في الغابة ، وكذلك الحديث الذي يدور خلالها بين الشاعرين ، يتألف منهما النشيد الاول من اناشيد الجحيم الاربعة والثلاثين .

وينقسم جحيم دانتي الى الاقسام التالية :

١ ـ فناء واسع Vestibols فيه الكسالى Ignavi وقد جعلهم الشاعر يتعذبون باستمرار الجري تحت لسعات الذباب والزنابير . ويلي هذا نهر خرافي يدعى اكيرونته Acheronte ، ثم يلي ذلك تسع حلقات هي :

٢ ـ اليمبس Limbo ـ وهو الحلقة الاولى ـ وفيها العظماء والابطال واصحاب الفضائل الذين ماتوا قبل المسيح، او الذين ماتوا بعده ولم يتح لهم ان يدخلوا في دينه لجهلهم به . وبكلمة اخرى : اصحاب الفضائل غير المعمدين ويقوم عذاب هؤلاء بشوقهم الدائم الى رؤية الله والتنعم برؤية بهائه الالهي ، ولكنهم محرومون من ذلك حرمانا ابديا، حسب العقيدة المسيحية . وبين هؤلاء مكان فرجيل نفسه، على الرغم من الاحترام والحب العميقين اللذين كان يكنهما له دانتي ، واللذين كانا يكفيان للشفاعة له عنده لرفعه الى السماء ، لولا ان العقيدة الكاثوليكية لا تجيز له ذلك .

٣ ـ الحلقة الثانية ـ وفيها عبيد الشهوات الجسدية ، والفساق المتهتكون . وهم يتعذبون في الرياح العاصفة الهوجاء التي يظلون يتشقلبون فيها ، ويدورون دورانا لا ينقطع .

٤ ـ الحلقة الثالثة ـ وفيها الشرهون والطماعون ، وعذابهم هو المطر والبرد المنصبان فوقهم ، يغمرانهم بالوحول . ويحرسهم كلب اسطوري يدعى (تشيربيروس) له ثلاثة رؤوس ، وهو لا يني يمزقهم بافواهه الثلاثة .

٥ ـ الحلقة الرابعة ـ وفيها البخلاء والمبذرون ، يقفون في صفين متقابلين يتعايرون ويتخاصمون بشدة ، وهم يدورون ، ويرقصون ، ويصطدمون بعضهم ببعض ، ويدحرجون الصخور الضخمة بصدورهم .

٦ ـ الحلقة الخامسة ـ فيها اهل الحقد والكراهية يتخبطون في مستنقع اسمه ستيجه Stige وهم يتضاربون بالرؤوس والصدور والاقدام والايدي ، ويمزقون اجساد بعضهم بعضا بالاسنان ، كما انهم يبتاعون وحول المستنقع وهم يكرعون من مائه القذر .

٧ ـ الحلقة السادسة ـ وفيها الهراطقة والملحدون في قبور تملأ مدينة اسطورية اسمها ديته Dite وقد جعلها دانتي بداية الجحيم الاسفل الذي ينزل فيه ذوو الذنوب الثقيلة ، وفيها يشتد العذاب اكثر منه في الحلقات الخمس السابقة التي تعتبر ذنوب اهلها اهون من سواها واقل عذابا . وفي هذه المدينة يجد دانتي ورفيقه صعوبات كثيرة في الدخول ، فالشياطين تقف سدا في وجههما ، الى ان يهبط ملاك رحيم فيضرب الباب بصولجان في يده فيفتحه ، وتهرب الابالسة من وجهه ، ويدخل الشاعران المدينة . والقبور في هذه المدينة مشبوبة النيران ، تتعذب فيها ارواح الملحدين في قلب السنة النار المندلعة ، وصراخهم لا ينقطع لحظة .

٨ ـ الحلقة السابعة ـ وهذه تنقسم الى ثلاث دوائر : في الاولى مرتكبو العنف ضد الاقربين ـ وفي الثانية مرتكبو العنف ضد انفسهم ، بالانتحار وبالتبذير ـ وفي الثالثة المجدفون ، والمرابون ، ومرتكبو اللواط . ولكل نوع منهم اعذبته الرهيبة : فالاولون يفور بهم نهر الدم الغالي ، ويقف المينوتاورس الاسطوري ـ نصف انسان ونصف ثور ـ يقف غاضبا على باب هذه الحلقة ، والقنطروسات (وهي مخلوقات اسطورية كذلك لها جذع الانسان وراسه ، واما بقية الجسد فجسم حصان حتى العنق منه) دائبة الطواف بسهامها ، ترشق بها كل من يبرز رأسه من قلب نهر الدم الفائر ـ وهو ايضا نهر اسطوري يدعى فليجيتونته Flegetonte ـ وتقول الميثولوجيا اليونانية ان هذه القنطروسات كانت تفعل كذلك حين كانت تخرج للصيد في حياتها الارضية .

واما النوع الثاني من المعذبين ، وهم المنتحرون والمبذرون فقد تحول المنتحرون منهم الى غابة من النباتات الجافة تصيح وتولول من العذاب ، وتعشش فيها الطيور الخرافية التي تدعى هاربيس Arpic وهي مخلوقات لها رؤوس نساء واجسام طيور . ويقطع دانتي غصنا صغيرا من احدى الاشجار فيسيل منه الدم ، ومع الدم نحيب وتوسل مريران . اما المبذرون منهم فانهم يجرون مسرعين في قلب الغابة المولولة ، والكلاب الجائعة تعدو في اثرهم ، فلا هي تكف عن المطاردة ، ولا هم يعرفون الراحة والخلاص منها .

واما النوع الثالث ، وهم المجدفون ، والمرابون واللوطيون فان السنة من اللهب تنزل على رؤوس المجدفين منهم كالمطر المتلاحق ، بينما يتعذب الاخرون بالمشي السريع المستمر دون راحة والنار في اثرهم ، ويتعذب المرابون منهم ، الذين ارتكبوا العنف ضد الطبيعة والفن ، بالجلوس الدائم على الرمال المحرقة وقد تدلت اكياسهم من اعناقهم . وقد وقف دانتي يتحدث مع بعضهم بطلب من فرجيل .

٩ ـ الحلقة الثامنة ـ وهذه تنقسم الى عشر جيوب ، او خنادق Bolge تحتوي كل منها على طائفة من الخونة : ففي الجيب الاول منها القوادون ومستغلو النساء لاجل الاخرين ولاجل انفسهم . وهؤلاء تشويهم سياط بجلدهم

بها شياطين ذوو قرون مرعبة . وفي الثاني المتملقون والخداعون ، وهؤلاء غارقون في لجة عميقة مظلمة ، يتصاعد منها عفن كريه ، لانها ملأى بالغائط . وفي الثالث السيمونيون ، اي الذين اشتروا – او الذين باعوا – المقدسات والاشياء الروحية بالمال لا بالتقوى وعمل الخير . والسيمونية نسبة الى رجل كان يدعى سيمون الساحر ، وقد جاء الى القديسين بطرس ويوحنا ليبتاع منهما الروح القدس بالمال ، كما تشير الى ذلك اعمال الرسل . وهؤلاء السيمونيون رؤوسهم الى اسفل واقدامهم مرتفعة في الفضاء والنار تشتعل بها . . وفي الجيب الرابع الساحرون والمشعوذون ، وهم يسيرون الى الامام ووجوههم مقلوبة الى الخلف ، وبكاؤهم متواصل لا ينقطع . وفي الجيب الخامس المرتشون والمختلسون ، وهم يتعذبون في هوة ملأى بالقار الشديد الغليان ، والشياطين واقفون الوفا على جوانبها ليمنعوهم بخطاطيفهم الرهيبة من البروز فوق القار المغلي . وقد ارسل رئيس هؤلاء الشياطين ، واسمه مالاكودا ، بعض اعوانه لمرافقة الزائرين ، فسار دليل هؤلاء الشياطين المرافقين ، ويدعى برباريتشيا ، مخرجا من قفاه صوتا كصوت البوق يأتمر به الشياطين الاخرون . وفي الجيب السادس المنافقون والمتعصبون تجلل رؤوسهم قبعات مذهبة براقة الالوان ، ولكن باطنها من رصاص ثقيل ، وهم يسيرون ببطء شديد تحت ثقل ما يحملون على رؤوسهم . وهم يدوسون جميعا على جسد شيخ مصلوب على الارض بثلاثة اوتاد ، وهو يصرخ مستغيثا دون رجاء . وهذا الشيخ هو قيافا ، كاهن اليهود الاكبر الذي طالب بيلاطس بصلب المسيح . وفي الجيب السابع اللصوص ، وهم يجرون عراة والافاعي ملتفة حول اجسامهم تلدغهم وتعذبهم فيحترقون من لدغاتها وتتحول جثثهم الى رماد ، ثم لا تلبث أن تعود كما كانت ليستمر العذاب على هذه الصورة . وفي الجيب الثامن تندلع السنة لهيب لا عد لها من أجسام مشيري السوء ، وهم يسيرون بلهيبهم دون انقطاع . وفي التاسع يصطلي مثيرو الفتن الدينية ، والشقاق والحروب الاهلية ، والشياطين ماضية في تمزيق اجسادهم بشفار السيوف جزاء ما اقترفوه في حياتهم . وبين الهالكين واحد يحمل راسه بيده عاليا ويسير به كأنه مصباح يتدلى من يده ، وهذا الهالك هو شاعر التروبادور برتران دي بورن دي هوتفور ، الذي يقال انه أوقع بين ملك انكلترا هنري الثامن وابنه . وكل واحد من هؤلاء الهالكين مشوه بشكل ما : فاما مقطوع الحلق والاذن ، وأما مجدوع الانف ، واما مقطوع اللسان ، او اليدين ، او غير ذلك من اعضاء الجسم ، مما دفع دانتي الى ان يهتف في مطلع نشيده الثامن والعشرين قائلا :

« اترى يستطيع انسان ، ولو بكلام منثور ، ان يصف الدماء والجراح التي رأيتها الآن . . . وصفا وافيا ، مهما حاول ان يعيد القول ويكرره ؟! »

وفي الجيب العاشر المزيفون : مزيفو المعادن بالكيمياء ، ومزيفو اشخاصهم بالتنكر ، ومزيفو المال ، ومزورو الكلام . والالون يتعذبون بالجرب والبرص ، ويجري مزيفو اشخاصهم غاضبين حاقدين ، ينفثون حقدهم بالعض والنهش لكل من يصادفونه امامهم ، ويتعذب مزيفو المال بالعطش الدائم الى جرعة ماء ، ومزورو الكلام بالحمى اللاهبة والصداع الاليم .

بعد ذلك تأتي الحلقة التاسعة والاخيرة من الجحيم ، وهي مقسمة الى اربع مناطق ، يتعذب فيها الخونة والغادرون . وهذه الحلقة يحرسها مردة هائلو الاجسام كأنهم الابراج الضخمة :

١ – المنطقة الاولى – وتسمى منطقة قائين (قابيل) ، ويتعذب فيها من خانوا اقرباءهم ، فهم غارقون في الجليد ووجوههم مقلوبة الى اسفل . ويحمي هذه المنطقة مردة اسطوريون ممن غدروا بآبائهم من آلهة الميثولوجيا ، فعاقبهم آباؤهم عقابا صارما . ومن هذه المنطقة يتناول المردانتيوس الشاعرين بيديه وينقلهما الى قرار الجحيم .

٢ – المنطقة الثانية – فيها الذين خانوا الوطن ، وهم غارقون في الجليد ووجوههم مقلوبة الى فوق . وفي هذه الحلقة رأى الشاعران رجلين يبرزان من بحيرة الجليد واحدهما منقض على راس الآخر ينهش جمجمته بنهم وحقد شديدين .

٣ – المنطقة الثالثة – فيها الذين غدروا بضيوفهم . وهم ممددون تحت طبقة من الجليد وعيونهم متجمدة .

٤ – المنطقة الرابعة – فيها الذين غدروا بمن احسنوا اليهم . وهم يتعذبون بالجليد يطمرهم طمرا تاما . وفي هذه المنطقة ، التي تدعى « حلقة يهوذا » ، نجد رئيس الشياطين (لوشيفيرو) الذي تقول التوراة في سفر التكوين انه قام بانقلاب على الله في السماء ، فزج به الله في اعماق الجحيم . وقد جعله دانتي ذا ثلاثة رؤوس ، وهو يمضغ في افواهه الثلاثة اجساد يهوذا ، وبروتس ، وكاسيوس : فيهوذا هو الذي باع معلمه المسيح الى اليهود ليصلبوه ، وبروتس قتل صديقه وامبراطوره قيصر ، وكاسيوس اشترك ايضا في المؤامرة على حياة صديقه وسيده قيصر . ولقد كان الشعر الذي على جسد لوشيفيرو من الضخامة بحيث استطاع الشاعران ان يتخذا منه سلما يتسلقان عليها ليخرجا من فجوة في الهوة الى خارج الجحيم .

والان قبل ان نبدأ (بعرض الصور) التي تمثل بعض هذه المشاهد نحب ان نشير الى ان هذا الجحيم الدانتي جحيم مسيحي مئة بالمئة ، وان تكن الميثولوجيا اليونانية والرومانية المستمدة من ملاحم فرجيل وهوميروس تسيطر الى حد غير قليل على جو الاناشيد الاربعة والثلاثين التي يتألف منها قسم الجحيم من الكوميديا الالهية . ونشير كذلك مرة اخرى الى ان النزاع السياسي في ايطاليا قد

ترك طابعه فيه كذلك ، ففي الجحيم الدانتي كثيرون جدا من رجال السياسة الايطاليين ورجال الكنيسة من عهد دانتي، وقد حدد الشاعر لكل منهم مكانه هناك وعقوبته ، ولاسيما في المناطق الاربع الاخيرة التي في اسفل الجحيم ، وفي اشد اماكنه عذابا . (وتلا ذلك عرض صور الجحيم) .

ونأتي الان الى المطهر الدانتي ، وهو جزء من عقيدة المسيحيين في العالم الآخر .

يختلف المطهر عن الجحيم في انه مكان للتكفير والتطهر الآنيين ، يخرج منه المرء بعد مدة معينة وقد طهرت نفسه واصبح اهلا للسماء . اما الجحيم فهو مكان عقاب ابدي ، لا رجاء فيه ولا خلاص من عذابه .

وبينما كان دانتي في الجحيم ينحدر من فوق الى تحت نجده في المطهر يصعد من تحت الى فوق : فقد جعل المطهر جزيرة على شكل جبل شاهق مقطوع الراس ، تلتف حوله عشر دوائر تتسع في القسم الاسفل من الجبل ، وتضيق في القسم الاعلى .

بعد ان يخرج دانتي ودليله من ظلمات الجحيم يفرحان بالهواء المنعش ورؤية النجوم اللامعة في السماء . وعند اول المطهر يلتقيان بحارس المطهر ، وهو السياسي الروماني كاتو الذي مات منتحرا عام ٤٦ ق.م. ، فيسألهما هذا عن سبب مجيئهما ، وكيف استطاعا الهرب من الجحيم ؟ فيروي له فرجيل الحقيقة ، ويستحلفه بروح زوجته مارتسيا – التي يذكر فرجيل انها زميلته في اليمبس – ان يدلهما على الطريق لرؤية سائر اجزاء المطهر . فيدلهما كاتو على الطريق ، فيمضيان يصعدان فيه .

وتتألف جزيرة المطهر من قسمين : قسم ما قبل المطهر Anti-Purgatorio وهو يتألف من ثلاث طبقات – وقسم المطهر ، ويتألف من سبع دوائر . اما الطبقات الثلاث التي يتألف منها ما قبل المطهر فاولها الشاطىء ، ثم الطبقة الاولى التي يتطهر فيها الذين ماتوا محرومين من الكنيسة . وهؤلاء عليهم ان يقضوا في هذا المكان مدة تعادل ثلاثين ضعفا للعمر الذي عاشوه خارج سلطة الكنيسة . وفي الطبقة الثانية يتطهر المهملون ، اي الذين تهاونوا في الندامة على ذنوبهم الى آخر ايامهم ، والذين داهمهم الموت فاهتدوا الى الله في اللحظة الاخيرة فقط ، والذين شغلتهم الحروب او الاعمال الادبية او السياسية فلم يهتدوا الى الله الا في اللحظة الاخيرة من حياتهم . وهناك ايضا وادي الامراء وفيه يتطهر عدد من الملوك والامراء الذين شغلوا طوال حياتهم بالامجاد الدنيوية وتركوا امر الروح وعبادة الخالق الى اخر ايامهم . وجميع هؤلاء يقضون في ما قبل المطهر مدة تعادل عمر كل منهم على الارض .

ونأتي بعد ذلك الى قسم المطهر . لقد رقد دانتي قليلا قبل عبوره من قسم ما قبل المطهر الى المطهر ، فراى في الحلم نسرا عظيما يهبط من السماء فيحمله ويصعد به الى المطهر . فافاق من نومه مذعورا ، ولكن فرجيل اخبره بان القديسة لوشيا – وكان دانتي شديد التعبد لها – هي التي نزلت من السماء وحملته واوصلته الى المطهر .

اما الدوائر السبع التي يتألف منها المطهر الدانتي ، فهي موزعة كما يلي :

– الدائرة الاولى – يتطهر فيها المتكبرون . وهم يسيرون ببطء شديد حاملين صخورا ثقيلة على ظهورهم ، وقد نقشت على الجدران صور تمثل التواضع الممجد ، وعلى الارض صور اخرى تمثل الكبرياء المعاقبة .

٢ – الدائرة الثانية – يتطهر فيها الحساد جلوسا وهم ملتفون بمسوح حقيرة خشنة ، وقد خيطت رموشهم ، فبدوا كالمتسولين امام ابواب الكنائس . وهناك اصوات تتعالى صارخة بامثلة من المحبة الممجدة والحسد المعاقب.

٣ – الدائرة الثالثة – ويتطهر فيها الغاضبون وهم يسيرون في قلب الدخان .

٤ – الدائرة الرابعة – يتطهر فيها الخاملون ، فيركضون صارخين متمثلين بامثلة من الدوافع المجيدة تستحثهم .

٥ – الدائرة الخامسة – للبخلاء والمبذرين . وهم ممددون على الارض مقلوبة وجوههم تحتهم .

٦ – الدائرة السادسة – للشرهين . وهم يعانون الجوع والعطش ، بينما تصك اذانهم اصوات تصرخ مذكرة اياهم بامثلة من الاعتدال الممجد والشراهة المعاقبة .

٧ – الدائرة السابعة والاخيرة – للزناة . وهؤلاء يسيرون في النار وهم يصرخون متمثلين بامثلة من العفة الممجدة والفجور المعاقب .

وهذه الدوائر السبع يرمز بها دانتي الى الخطايا السبع الرئيسية في اعتقاد الكاثوليك ، وهي الخطايا التي عاقب اصحابها في هذه الحلقات من المطهر .

حين وصل دانتي الى باب الدائرة الاولى من المطهر وجد هناك ملاكا يحمل سيفا . وحين علم الملاك بمهمته رسم على جبينه بطرف سيفه حرف (P) سبع مرات . وهذا هو الحرف الاول من كلمة Peccato الايطالية التي تعني (الخطيئة) ، وكلما غادر دانتي دائرة من دوائر المطهر سقط عنه واحد من هذه الحروف ، فما ان غادر الدائرة الاخيرة حتى كانت الحروف السبعة قد سقطت عن جبينه. ومعنى هذا انه قد طهرت نفسه من الخطايا .

بعد ان ينتهي الشاعران من رؤية سائر دوائر المطهر يصلان الى الفردوس الارضي ، وهو قمة المطهر التي تشبه الراس المقطوع . وهناك يبدأ الاحتفال العظيم بلقاء دانتي وبياتريشي ، وهو احتفال جدير بان نسجله ههنا لاهميته ، ولقوة الشاعرية التي املته . ويبدأ هذا الاحتفال بالنشيد السابع والعشرين ، ويصل الى ذروته في النشيد الثالث والثلاثين – آخر أناشيد المطهر – حين تتقدم ماتيلدا وتغمس دانتي في نهر أيونويه ، فاذا هو طاهر ومستعد

لدخول السماء مع فتاته بياتريشي . وفي ما يلي خلاصة الاحتفال :

عند صعود الشاعرين الى الفردوس الارضي تظهر ماتيلدا على ضفة نهر ليتي ، وتأخذ في وصف الفردوس الارضي الذي يشبه جنة عامرة بكل ما ينعش النفس ويبهج الخاطر من مجالي الفتنة ، بينما هي تقطف الوانا من الزهر العابق بالشذا الحلو . وتسمع ترانيم تصدح بغناء جميل ، ثم تظهر من بعيد سبع شمعدانات ذهبية تشع منها سبعة اضواء ملونة ، ويظهر اربعة وعشرون شيخا في ثياب بيضاء وعلى رؤوسهم اكاليل من الزنبق ، واربعة حيوانات مكللة باغصان خضراء ، ولكل منها ستة اجنحة في ريشها عيون ، وجريفون ابيض ومذهب يجر عربة فخمة ذات دولابين ، وعلى يمين العربة ثلاث نساء يرقصن : أحداهن بملابس بيضاء ، والثانية خضراء ، والثالثة حمراء ، واربع نساء يرقصن على شمالها ، ولرئيستهن ثلاث عيون . وهناك شيخان يرتدي احدهما ثياب طبيب ، والثاني يحمل سيفا ، واربعة شيوخ آخرون مظهرهم وضيع ، وشيخ نائم بادي الذكاء . وينهض من العربة مئة ملاك . ثم تظهر بياتريشي في وسط سحابة من الورد المتناثر حولها وبين اهازيج الموكب . ويهتف احد الارواح ثلاث مرات : « هلمي ياعروسا من لبنان » ، فتردد بعده هتافات اخرى : « مباركة الآتية » .

في هذه اللحظة يكون فرجيل قد توارى مثلما ظهر من قبل ، دون ان يحس به دانتي . وتقف بياتريشي في وسط العربة تقول لدانتي أن لا يجزع لفراق فرجيل ، ثم تأخذ في تأنيبه على انغماسه في الاثم بعد موتها . فيعترف لها دانتي ، ويعرب عن توبته عن كل ذنوبه . وعند ذاك تتقدم النساء السبع اللواتي على يمين العربة وشمالها فيقدنه حتى يصبح أمام العربة ، فيضرعن الى بياتريشي — التي كانت ما تزال تخفي وجهها خلف حجاب — ان ترفع الحجاب عن وجهها ، فترفعه . وتتقدم ماتيلدا فتغمس دانتي في نهر ليتي فيطهر من ذنوبه كلها .

وتمضي العربة في وسط الموكب الى شجرة باسقة غير ذات اوراق ولا ازهار ، فيربط الجريفون — وهو حيوان عظيم له رأس نسر وجناحاه وبقية جسمه أسد — العربة الى ساق الشجرة فتكتسي الشجرة حالا بالاوراق والنوار وفي تلك الاستراحة يغفو الشاعر ، ثم يصحو فيرى بياتريشي جالسة عند جذع الشجرة المنورة ، ومن حولها النساء السبع يحملن الشمعدانات السبع ، اما الجريفون ورفاقه فقد تركوا العربة وصعدوا الى السماء . وينقض نسر من اعلى الشجرة على العربة فيشدخها هي والشجرة معاً . ثم يهجم ثعلب على العربة فتطرده بياتريشي . ويعود النسر فينقض من جديد ، ويلقي ريشه على العربة والشجرة معا . ويهتف صوت من السماء : « ما اكثر ما تحملين من الشرور يا سفينتي ! » . ويخرج من الارض تنين فيقتلع العربة ويمضي بجزء منها ، واما الجزء الباقي فيغمره الريش الساقط من النسر ، وتتحول العربة الى وحش ذي سبعة رؤوس مختلفة القرون ، وفي اعلاه تظهر امراة فاجرة وعملاق يأخذ في هزها وتقبيلها بعنف ، ثم يفك العربة من الشجرة ويجرها حتى يختفي بها في وسط غابة . وتنهض بعد ذلك ماتيلدا فتغسل دانتي في نهر ايونويه ، فيصبح طاهرا ومستعدا لدخول السماء . ولا تصبح النفس مهيأة لدخول السماء الا بعد ان تغتسل بنهر ليتي اولا ، لتسقط عنها الخطايا ، ونهر ايونويه ثانيا ، لاكتساب الاهلية لدخول السماء .

واذا كانت الكوميديا الالهية ملأى بالرموز الدينية ، فان هذا القسم منها رموز كله : فبياتريشي — كما اسلفنا — رمز الحكمة الالهية ، والعربة هي الكنيسة الكاثوليكية ، والجريفون هو السيد المسيح الذي يقودها ، والشجرة التي ربطت اليها العربة هي شجرة معرفة الخير والشر ، والحوريات السبع الراقصات من حول العربة هن الفضائل الكبرى السبع ، اي (الايمان ، والرجاء ، والمحبة ، والحكمة ، والعدالة ، والقوة ، والقناعة) ، والشيوخ الاربعة والعشرون رمز لكتب العهد القديم التي تتألف منها التوراة ، وتكرر انقضاض النسر على العربة لتدميرها رمز الى الاضطهادات التي توالت على الكنيسة ، والثعلب الهاجم عليها هو رمز الهرطقات الدينية ، والتنين الذي اقتطع جزءا من العربة هو الجشع الانساني ، او هو الانشقاقات الدينية التي ابعدت كثيرين عن الكنيسة الكاثوليكية ، والوحش ذو السبعة الرؤوس — وهو من اثر رؤيا القديس يوحنا — هو الخطايا الرئيسية السبع ، والحيوانات الاربعة التي من حول الجريفون رمز الى الانجيليين الاربعة ، وهذه الحيوانات هي ، الاسد ، والعجل والنسر ، والرابع حيوان له وجه انسان — وما تزال الكنيسة الكاثوليكية الى اليوم ترمز بها الى الانجيليين الاربعة ، وهي في الاصل مأخوذة من رؤيا حزقيال في التوراة — والشيخ النائم رمز الى يوحنا الانجيلي ذي الخيال المحلق في رؤياه ، والنوم هنا رمز للرؤى والخيالات .

وجدير بنا ان نذكر ههنا ان هذا القسم من الكوميديا هو اكثر اجزائها تأثرا برؤيا القديس يوحنا ، وبالتوراة ، ولا سيما رؤيا النبي اليهودي حزقيال . واذا كنت قد اشرت في العبارات السابقة الى بعض هذا الاثر فاحب الان ان اضيف اشارة اخرى الى ان الشيوخ الاربعة والعشرين الذين ورد ذكرهم في موكب بياتريشي هذا ، قد ورد ذكرهم كذلك في رؤيا يوحنا اذ جاء انهم يحيطون بعرش الله ، والاجنحة الستة التي لكل من الحيوانات الاربعة ورد ذكرها كذلك في الرؤيا ، كما ورد ذكرها في رؤيا حزقيال ايضا ، الا ان هذا جعلها اربعة فقط ، بينما جعلها يوحنا ودانتي ستة . ودانتي نفسه يشير الى ذلك في النشيد التاسع والعشرين من المطهر ، فيقول :

« واقتربت الحيوانات الاربعة ، وكل منها متوج باغصان خضراء – ولكل منها ستة اجنحة – وريشها مملوء بالعيون ولو كانت عيون آرغوس ما تزال حية ، لما كانت الا مثلها ».

(وارغوس هو حيوان اسطوري اقامته الالهة يونون رقيبا على « آيو » التي كان زوجها الاله جوبيتر يحبها . وكان لهذا الحيوان مئة عين ، ثم خدعه الاله عطارد وقتله، فنقلت يونو عيونه الجميلة الواسعة الى ذيل الطاووس ، كما يقول اوفيد) .

ويضيف دانتي بعد ذلك قائلا :

« وفي وصف اشكال هذه العيون لن انظم المزيد من القوافي ، يا قارئي ، لان هناك امورا اخرى تحتاج الى قوافي – فليس في وسعي ان اتوفر على هذا وحده–ولكن عد الى حزقيال الذي رسمها كما رآها قادمة من البلدان الباردة – مصحوبة بالرياح والضباب والنار – وكما تجدها في اوراقه ، كذلك كانت لدي – الا ان يوحنا يتفق معي حول ريشها ويختلف عنه » .

ولست اريد ان اطيل في هذه الرموز وهذه المقارنات ، فهي في الواقع تحتاج الى توفر اكثر على البحث الطويل، وعلى التوسع في التحليل والمقارنة ، وليس هذا مكان كل ذلك . فلننتقل اذن الى وصف اقسام الفردوس لنعرف كيف اقامه دانتي في كوميديته .

حين ننتهي من المطهر نعود فنرى دانتي مع بياتريشي في الفردوس السماوي ، وهي تقوده من سماء الى سماء . وقد صور دانتي الفردوس في شكل تسع سموات ، يليها صدر الجنة ، او ما نستطيع ان نسميه «عليين» Empireo ويظهر في شكل وردة ناصعة ثم تسع حلقات من النور والاجواق الملائكية ، في وسطها الخالق ، تسجد له الاجواق جميعها وتسبحه مدى الدهر .

ولا بد ان نذكر ههنا ان الحب البشري قد انتفى انتفاء تاما في الفردوس ، فلم يعد دانتي يستطيع ان يشعر بغير لذة الحب الالهي الذي ملأ قلبه، واصبحت بياتريشي رفيقا سماويا مقدسا يشترك معه في النعمة الروحية الالهية التي هي وحدها مصدر السعادة والنعيم في السماء . ومن هنا كان فردوسه مسيحيا صرفا ، حسب العقيدة اللاهوتية المسيحية التي تعتبر الله كل شيء في الفردوس السماوي ، وتنفي كل معنى للذة دنيوية .

اما السموات التسع فهي كما يلي :

١ – سماء القمر – وفيها الارواح التي لم تكمل نذورها على الارض ، ومعها طبقة الملائكة ، وجميعها ترى صورها منعكسة في مرايا بلورية ، او على صفحات الماء .

٢ – سماء المشترى – وفيها الارواح العاملة النشيطة التي صنعت الخير لاجل المجد والشهرة ، ومعها كذلك طبقة رؤساء الملائكة . وجميعهم يبدون هالات من نور ترقص وترنم .

٣ – سماء الزهرة – وفيها ارواح المحبين ، وطبقة امراء الملائكة . وجميعهم يرنمون وهم يدورون في حلقات كذلك .

٤ – سماء الشمس – وفيها الارواح الحكيمة ، ومعها طبقة القوات من الملائكة . وهم يرقصون على شكل اكليل ثلاثي .

٥ – سماء المريخ – وفيها الارواح المجندة ، او المحاربة لاجل الدين ، ومعها طبقة الفضائل من الملائكة . وكلهم جواهر ترقص وترتل على شكل صليب مضيء .

٦ – سماء عطارد – وفيها الارواح العادلة ، وطبقة السلطات من الملائكة . وهم يرتلون طائرين في شكل حروف ثم في شكل نسر .

٧ – سماء زحل – وفيها الارواح المتأملة ، ومعها طبقة العروش من الملائكة ، وهم يتحركون على طول سلم ذهبية صعودا ونزولا مسبحين الله .

٨ – سماء النجوم الثابتة – وفيها الارواح المنتصرة ، وطبقة الكروبيم من الملائكة ، وهم انوار مستمدة من شمس ساطعة شديدة الضياء .

٩ – السماء الاولى – وفيها اجواق ملائكية ، وكذلك طبقة السارافيم من الملائكة .

وبعد ذلك تاتي الوردة الناصعة ، او عليون ، وتسع حلقات من نور تتالق فيها اجنحة الملائكة التي تدور ساجدة حول العرش تسبح الخالق وتمجده دون انقطاع .

وفي طواف دانتي وبياتريشي في هذه العوالم السماوية يلتقي دانتي بموكب السيد المسيح ووالدته ، وبرئيس الرسل بطرس ، والرسل الاخرين ، ويتوقف ليتحدث معهم طويلا عن الكنيسة ، وعن بعض رعاتها الذين لم يحسنوا اداء رسالتهم . ويلتقي كذلك بكثيرين من القديسين والصالحين ويتحدث معهم . وكلما تقدم دانتي ورفيقته كان النور يزداد بهرا لعينيه ، وتزداد بياتريشي تألقا وضياء كلما ازدادت قربا من عرش الجلال الالهي . وفي النشيد الثلاثين من الفردوس تكون قد بلغت من البهاء ما يتجاوز كل حدود الوصف ، وفي النشيد الحادي والثلاثين تتوارى عن عيني رفيقها لتمضي فتحتل مكانها في الوردة الناصعة، وترسل القديس برناردوس ليدل دانتي على مكانها، وليتابع له الشروح التي يريدها ، بعد ان تكون قد حققت له الوصول الى العرش ، والاقتراب من السناء الالهي . وينتهي جزء الفردوس بالنشيد الثالث والثلاثين .

لقد بلغت اناشيد الكوميديا الالهية في مجموعها مئة نشيد : اربعة وثلاثون للجحيم ، وثلاثة وثلاثون لكل من المطهر والسماء .

عمان — عيسى الناعوري

قصة

المعاش

بقلم احمد محمد عطية

اربعون عاما مضت بعبد الفتاح في العمل الحكومي ، وابيضت الشعيرات في الراس ، وارتفع المرتب قليلا ، وتهدم الجسم يا عبد الفتاح ، تهدم كمبنى هذه المحكمة التي تنهى فيها ايامك الاخيرة قبل المعاش ... عد يا عبد الفتاح كم شهرا وكم يوما وكم ساعة بالضبط باقية على فك اسرك من هذا المكتب ، اليوم لم يبق سوى سبعة اشهر وعشرين يوما ... وكم ساعة أيضا ، ثم تصبح بلا عمل ، بلا وظيفة ، لن توقع بامضائك على الورق مرة ثانية الا في اول كل شهر ، لن تركب اوتوبيسات القاهرة المزدحمة وتتهرا ملابسك ، اكثر مما هي بالفعل ولن تطاردك الساعة الالية اللعينة التي تضبطك وتحضرك الى مكتبك رغم انفك ، ولن ترفع غطاء الدفء في صباح الشتاء القارس ، وتبعدك عن احضان الزوجة الصغيرة الحلوة ... لن يتابعك رئيسك بالقفشات كلما سرقت النظرات الى النساء المترددات على المحكمة ، وعبثا تقول له ان «الله جميل يحب الجمال» ... بالجملة ستسترد حريتك التي فقدتها طوال اربعين عاما من الزمن ، ما اكثر ما حلمت بهذا اليوم ، حين تملك وقتك وتفعل ما تريد ، ... ولكن ماذا تريد بالضبط ... ؟! لا شيء ... لا شيء اكثر من الراحة ، بلا قيود ، بلا مواعيد ولا رؤساء ، بلا تقارير ولا درجات ولا علاوات ... ولكن هذا الشاب الجالس الى جوارك ، الفرح بوظيفته ، الدؤوب كالنمل على عمله ، لا يكف عن هذا السؤال اللعين ، «ما مشروعاتك يا عبد الفتاح بعد المعاش» .. مشروعات .. اي مشروعات ، كأنما ستبنى هرما ، كفاك مشروعات ، لا شيء اطلاقا ، اكثر من اللقمة الحلوة والزوجة الشابة ، وفنجان القهوة ، وبضع زيارات للاهل والاحباب . لا شيء اكثر من البعد عن هذه السجلات المتربة الصفر ، بعيدا عن هذه المحكمة بمحترفي التقاضي ، وبالذين يقعون في آمال المحامين الفضفاضة ، بعيدا عن الخسارة والمكتب التي يلقاها الناس من هذه المحكمة .. هذا كل ما تريد ، الراحة .. لا اكثر ولا اقل ..ويعاود الشاب سؤاله في الحاح، ولكن.. وما بعد الراحة يا عبد الفتاح .. في كل يوم ستقتحم عليك شمس الضحى خمولك ، ثم تجلس بين الاطفال والنساء ، وتمر الساعات بطيئة طويلة ، الرجال في عملهم ، والنساء في شئونهن المنزلية ، والاطفال في مدارسهم ، وانت اين مكانك بعد الستين ؟ ستأتي الشمس وتذهب وانت كما انت ... حقا اصبت يا عزيزي ، انها مسألة صعبة ... اذا قضيت يومك في البيت مع الزوجة ، ستثور عشرات الخلافات

وهل نسيت يا عبدالفتاح ، كل اجازاتك التي امضيتها في البيت كانت مشحونة بالمعارك ، اية مسألة بسيطة كانت تحول البيت الى جحيم فكيف يكون الحال وانت ستقضي العمر في اجازة ، العمر ، وماذا بقى من العمر يا عبد الفتاح ...؟! لاداعي للاكتئاب ، والاعمار بيد الله .. ولكن حقا كيف ستقضي اربعة وعشرين ساعة ، وانت حر كما تقول بلا عمل ... ولا قيود ... ما اغربه سؤال ، وما أشدها مشكلة ...

وازاح عبد الفتاح السجلات الباهتة من امامه ، ورفع رأسه لاعلى ، الى النافذة ذات القضبان الحديدية ، واشعة الشمس تندفع من بينها، بينما تتعارك ذرات الغبار داخلها ، وكأنما تغتسل هذه الحجرة المهدمة الهابطة الى ما تحت مستوى المارة ، بحيث تعرض نافذة « البدروم » هذه، فيلما يوميا لارجل وسيقان مختلفة، «قطاع هام من جسم الانسان» ، كما اعتاد عبد الفتاح ان يقول كلما مرت انثى من خلال هذه القضبان البانورامية..

العمر يمر امامه كشريط سينمائي، السنوات ما اسرع ما جرت .. طفت البلاد من شرقها الى غربها ، وخالطت الوانا شتى من الناس ، في قرى الصعيد كنت كخيال المآتة الذي يخيفون به الطير ، كانوا يستخدمونك في تهديد المتأخرين عن سداد التزاماتهم ، كنت « محضرا » تجلب الخراب اينما حللت ، وتركت هذا العمل الذي يهين ضميرك ... ثم ذهبت تحسب ما يشربه الناس من دماء ، وتحاسبهم عليه ... حتى الماء يا عبد الفتاح اصبح له ثمن في هذا الزمن ... وكم دخلت بيوتا وكم رأيت جمالا وحسنا ... ولكنك لم ترض بحساب الماء ولا ببيعه.. فعدت الى اعمال المحاكم ، بلا حجز ، ولا خراب ، تسطر بقلمك مشاكل الناس وتتركها للعدالة ، تقرر فيها ما تراه ... كم تنقلت بين مدن واحياء وقرى ...من شارع زين العابدين الفاص بزوار السيدة زينب في القاهرة... الى جوار مياه الانفوشي بالاسكندرية ... الى جمال نساء حي الحسينية بالمنصورة ... وطوال كل ذلك كنت مثال الاعزب المخلص ... حتى بدا لك ان الشباب ينذر بالرحيل، وازداد الحنين الى من يؤنس وحشتك،ويترك علامة لك على مجرى تاريخ الانسانية بالخلف الصالح ... فتزوجت هذه الشابة الحلوة ، ولم تبال بعشرين عاما من الزمن تباعد بينكما كلما اوغل الزمن في المسير ؟!... وجاء الخلف الصالح بعد طول انتظار ، وصار نبيل شغل البيت الشاغل... وهذه

عليلة الورد

كنت معي في النارفي الكوثر ... تجسدي كالموسم الاخضر
ما سمرت ارضي مدى نشوة ... لو لا سطوع منك في المضمر
حلمت ان طارت بنا مقلة ... فجرية ، حطت بلا محجر
خرجت منها نيزكا مائجا ... ملء جفون العالم الانضر
من قمة ، نطفر فوق السنى ... زورقنا ارجوحة العنبر
وتخطرين نسمة الهبت ... بحارة الاولمب والمشتري
اخصبت عينيك فلي موعد ... اي شعا عفيك لم يزهر
زنبقتي ، قلبي زهرية ... والحب، ما نحن، حاول طري
للورد من عطرك اسطورة ... يعزفها الجدول للانهر
حاك على الثغر وريقاته ... فبرعم اللون الخضيب الثري
وعندي الطيب شراع له ... مركبة الاضواء والاسمر
بعثت غب رحلتي في الثرى ... سهما لروحي شك في الاعصر
يا ضلعي الشرود ان ترحلي ... عن جعبة الانوار تستهري
تهت وتهت امس عبر القوى ... عبر الرؤى في شاطىء احمر
اعراقنا جفت وهذي يدي ... بين يديك هيكل المرمر
مطارك الازرق احلامنا ... ساحت بنا الدنيا ولم يقفر
تبارك الحب بذورا حوت ... نيران صحرائي على بيدري
قارورتي انت اسكبي مهجتي ... ما يطلع الاعراس في الاحجر

موسى المعلوف

مسألة اخرى ، ان العمر ينتهي ياعبد الفتاح وابنك لا يزال يدرس الالف والباء ...

ومر عبد الفتاح بيده على الشعيرات القليلة البيضاء في رأسه ، ونهض من مجلسه ، واصلح من وضع الحمالة على كتفيه ، واعاد رباط عنقه الى مكانه وسط قميصه ، وارتدى معطفه وخرج مع الخارجين بعدما انتهى اليوم الوظيفي، والناظر الى وجهه يستطيع ان يلمح بروز مشكلة المعاش على ثناياه الكثيرة، وبدت النقطة البنية في خده وكأنما تنتفض قلقا على مصير ذلك العجوز ، وتعلق بحديد الارتوبيس واخرج بيد معروفة قطعة معدنية لزجة دسها في يد المحصل ، ثمنا لحمله الى آخر القاهرة ، واخذ الاوتوبيس ينهب الارض، وافكار عبد الفتاح القلقة تنهش راسه ، ولكن هل يسأل زوجته المشورة كما اعتاد ان يفعل كلما لاقته الصعاب ... لا ، انه يعرف رأيها مقدما ، ان يخرج في كل صباح يزور اضرحة اولياء الله التماسا للبركة ، حتى يؤذن لصلاة الظهر فيؤديها ويعود الى منزله ... وكان هذا من بعض خططه ، ولكن هل تنقضي الحياة على هذا النحو ؟! ... الدنيا تتغير يا عبد الفتاح ، ولولا انها تغيرت لما اقلقك مصيرك بعد المعاش ، ولفعلت كما يفعل كل الزملاء، فجلست الى المقهى تلعب النرد ، وما احلى « البولة » عندما يشترك زملاء المعاش في لعب الطاولة ، والمنتصر يستمر، وانت تصول وتجول وتطالبهم بسخريتك المعتادة ان يقرءوا كتابك في لعبة النرد ... لا ولا هذا ايضا يعجبك ويرضيك يا عبد الفتاح ، انها لعبة مسلية جميلة ، لا عملا لباقي العمر.

واخلي مكان في الاوتوبيس فسارع بالارتماء فيه ، الله ما احلى الراحة بعد طول التعب ... ما الذ الراحة بعد العمل ، بلا تعب لا يكون طعم للراحة يا عبد الفتاح ، والزمن تغير تماما ، و « العمل حق ، العمل واجب العمل شرف ، العمل حياة » ... ولكن اي عمل يناسبك بعد الستين يا عبد الفتاح ، انظر الى شبابك يا عبد الفتاح تذكر كيف قتلت الوظيفة هوايتك الجميلة، الرسم ... وابتسم عبد الفتاح كأنما وجد ضالته، وكفت النقطة البنية في خده عن الانتفاض وانفرجت اساريره ما اجمل ان تحمل لوحتك وفرشاتك ، تنقل الطبيعة بالوانها الرائعة الى اللوحات ، ما اجمل العمر الطويل هكذا ياعبد الفتاح ووصل الاوتوبيس الى مرماه، فهبط عبد الفتاح مع الهابطين ، كائنا آخر، نشيطا مبتسما متفائلا ...

احمد محمد عطية — اهرام الجيزة

الضباب في الصيف

الصيف يعدو حافيا في حقول الرماد
الصيف يعدو وانا اعدو وراءه
ايتها الظلال.. انني احترق
الي بالماء
قطرة ماء واحدة .. وينتهي الي
ان جرحي يفتح فمه هكذا .. ويصرخ
بماذا يحلم الاطفال والقديسون
وماذا تخبىء العاصفة
ايتها الشواطىء الارجوانية
لمن تقرع الطبول

ظلي يعدو ...
وانا اعدو وراءه في الحقول
وها هو غارق بالضباب
وجرحي يفتح فمه
والعاصفة تهب

القاهرة — هند نوري

ذي الاطواق المنشاة . والى صورة الملك ريتشارد قلب الاسد وهو في درعه وليس في لباسه الخاكي . نقول ان نظرتنا الى تلك الصور تنسينا ان ارديتهم تلك انما كانت ارديتهم العادية . وتجعلنا نظن انهم كانوا قوما من البعداء غير المألوفين لنا بل تجعلهم شخوصا غريبة شاذة . وهذا يكاد ان يكون امرا غير مقبول ذلك لانك لو نظرت الى صور قديمة لاصحابك وهم يرتدون ملابس تتفق والزي الذي كان سائدا منذ عشر او عشرين سنة اذن لحسبتهم كذلك قوما من الغرباء .

ان الزمن هو الذي يحيل الملابس ـ ملابس الاحقاب التي خلت ـ الى ازياء تنكرية . اما السيرة التي اجيد تأليفها فانها تستطيع ان تمحو صور العصور والازمان فترينا « ابراهام لنكولن » وترينا « جان دارك » وكأنما يمشيان على الارض بيننا . ونحن نقرأ سيرتهما . وكذلك ان من يقرأ ترجمة صادقة لحياة « ليوناردو دافنشي » الفنان الايطالي ١٤٥٢ ـ ١٥١٩ ويصور « مونا ليزا » (الجيوكوندا) لا يستطيع ان يظن يوما ان ايطاليا في عصر النهضة قد كان يسكنها اقوام يرتدون اردية لا تخطر بالبال .

ان السيرة تقرب لنا ما مضى من الازمان كما تجعل الاقوام الماضين يقفون على مرأى ومسمع . وهي كذلك تجعل الدنيا تبدو اكثر انفساحا في الرقعة كما تجعلها مكانا صالحا للسكنى .

وهناك ميزة اخرى من ميزات قراءة تراجم الحياة . وتلك هي انها تزيد من احساسنا بالاستمتاع بالاشياء التي لا علاقة لها مطلقاً بالكتب فأن عملية بسترة اللبن لتبدو لنا اكثر فائدة اذا عرفنا شيئا عن ذلك الرجل المثابر المجد « لويس باستير » (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) .

وكذلك فأن عنصر الراديوم يصبح اكتشافا اكثر اثـارة للاعجاب اذا عرفنا أن امرأة صغيرة كانت ترتدي السواد اسمها « مدام كوري » قد كافحت كفاحا عنيفاً في سبيل الكشف عن الراديوم .

ان اشياء كثيرة تبدو اليوم وكأنها من الكواكب الثوابت قد ولدت بعد كفاح عنيف وبعد التعرض لضروب عديدة من الخيبة والفشل .

ان ابراهام لنكولن ١٨٠٩ ـ ١٨٦٥ كان يظن انه انما ادى عملا هزيلا تافها يوم القى في شهر نوفمبر من عام ١٨٦٣ خطبته المشهورة في مدينة جيتسبرغ وهو يدشن المقبرة القومية في تلك المدينة عقب المعركة التي نشبت هناك .

والشاعر جون كيتس ١٧٩٥ ـ ١٨٢١ قد مات وهو يظن ان اسمه لن يذكر ابدا . والف بيتهوفن ١٧٧٠ ـ ١٨٢٧ اشهر مقطوعاته الموسيقية بعد اصابته بالصمم . وكتب الشاعر ملتون أبدع قصائده بعد ان كف بصره وبات اعمى .

ان الاقوام الذين يستحقون ان يخلدوا هم اولئك الذين لم يعرفوا طعم الاستسلام . وان ترجمة صادقة لحيواتهم لتكشف للناس عن مصادر بطولاتهم . انهم في ظاهر امرهم . وانهم في نظر اصدقائهم يبدون وكأنهم اقوام عاديون . وان السيرة الصادقة لتبدي لنا السر في هذا الاشعاع الذي يبهر الابصار . وحتى في حالة شكسبير الذي لا تقوم اية علاقة بين سيرته وبين الفرحة التي يحسها اي قارىء وهو يقرأ رواياته .

ان ترجمة صادقة لحياة شكسبير لتبعث في نفوسنا رغبة صادقة في ان نعرف شيئا منه بوصفه رجلا من الرجال يأكل الطعام ويمشي في الاسواق .

ان كثيراً من الناس الذين عاصروا شكسبير لم يكونوا يحسنون الظن برواياته بحجة ان تلك الروايات كانت ترضي اذواق الدهماء . وكان الرأي السائد في ذلك الزمن ان الروايات الجيدة هي التي ترضي اذواق القلة من الصفوة المختارة .

ان السيرة التي أحسن تأليفها تقرب الماضي وتجعله حقيقة واقعة . ثم تهيء لنا دنيا واسعة نعيش بين ارجائها كما تصور لنا ابطالا نستطيع ان نتخذهم اخوانا لنا واخدانا ثم انها تعود بنا الى ذلك الزمان الذي انقضى حتى لنستطيع أن ننشىء صداقات ليس مع الاقوام الذين من حولنا وحسب بل كذلك مع سائر الاقوام الذين عاشوا في ثنايا التاريخ والذين جعلوا من هذه الدنيا مكانا يستحق ان يعاش فيه . وان يكون مثابة للناس وامنا .

القاهرة — مبارك ابراهيم



الدكتور محمد حاج حسين

قيس بن الخطيم

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

قالت الرواة : حدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس في مجلس ليس فيه الا خزرجي ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعمرة وحشا غير موقف راكب

فانشده بعضهم اياها ، فلما بلغ الى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هل كان كما ذكر ؟ » فشهد له ثابت بن قيس بن شماس، وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج الينا يوم سابع عرسه ، عليه غلالة وملحفة مورسة، فجالدنا كما ذكر .

ونشأ قيس بن الخطيم في يثرب ، قتل جده وابوه ، فعمدت امه الى كومة من التراب ، فوضعت عليه احجارا ، وجعلت تقول لقيس : هذا قبر ابيك وجدك خشية عليه ان يقتل في طلب الثأر .. واخيرا عرف الحقيقة ، واستطاع ان يثأر بابيه وجده في حديث طويل روته كتب الادب دل على شجاعته وبأسه الشديد .

ونبه شأنه بين قومه وتجمعت فيه المكارم العربية ، فهو فارس الاوس الذي يخوض الغمرات في قتالها المرير مع الخزرج ، وهو الشاعر الذي يسجل هذه الايام في شعر يتقد حماسة ، ويصمد في عنف وقوة لشاعري الخزرج : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ينقض قصائدهما ، مزهوا بقومه وأعمالهم الماجده . وهذا حسان بن ثابت يستعين عليه بالخنساء ، ويقول لها : « اهجي قيس بن الخطيم » فقالت : « لا اهجو احدا ابدا حتى اراه » : قال : فجاءته يوما ، فوجدته في مشرقة ملتفا في كساء له، فخنسته ، وقالت : قم ، فقام ، فقالت : ادبر فادبر ، ثم قالت : اقبل ، فأقبل . قال : والله تعترض عبدا تشتريه، ثم عاد الى حاله نائما ، فقالت : والله لا اهجوا هذا ابدا .

وهل تستطيع ان تهجوه ، وهي امراة قبل كل شيء تتصباها الرجولة الرائعة التكوين ؟. وقيس كان اجمل فتيان عصره ، ما رأته خليلة الا فتنت به ، وذهب بعقلها ، فقد كان مقرون الحاجبين ، أدعج العينين ، احمر الشفتين ، براق الثنايا كأن بها برقا ، يلتمع في اهابه الشباب الدافق، وتفيض منه حيوية تسبه لب النساء .

وكانت حياته قصيرة امضاها في نضال مرير ، فقد كانت الحروب مستعرة بين الاوس والخزرج ، ودفع قيس حياته ثمنا لهذه الايام المكفرة ، فقد خرج عشية من منزله يريد مالا له خارج يثرب ، ومر باطم بني حارثة ، فرمي من الاطم بثلاثة اسهم ، فوقع احدها في صدره ، فصاح صيحة سمعها رهطه ، فجاءوا ، فحملوه الى منزله ، وهو مضرج بدمه .. غير ان قومه الاشاوس أبوا الا ان يثأروا به قبل ان يغمض الموت عينيه ، ولم يروا له كفوءا الا ابا صعصعة يزيد بن عوف بن مدرك النجاري ، فاندس اليه رجل حتى اغتاله في منزله ، فضرب عنقه ، واشتمل على راسه فأتى به قيسا ، وهو في آخر رمق ، فالقاه بين يديه ، ونظر اليه بعينين كسيرتين ، وومض فيهما بريق خافت ، ثم اطبق عينيه ، وعلى شفتيه بسمة راضية .. وكان مقتله قبل الهجرة .

* * *

شعر قيس بن الخطيم غناء محض يهتف به ليعبر عن خوالجه وسوانحه ، فلم يجعل شعره وسيلة للكسب فعل خصمه حسان بن ثابت ، وليس في شعره سوى ابيات قالها يمدح بها خداش بن زهير صديق ابيه الذي اعانه على الثأر ، فهي اعتراف بالجميل لهذا السيد العربي الذي ساعده حتى نقع غلته من قاتلي ابيه وجده ، فمن الطبيعي ان يتغنى قيس بهذا النصر :

ثأرت عديا والخطيم فلم اضع ولاية اشياخ جعلت ازاءها

فشعره اغنية مثلت شخصيته ، فهو بطل موكل في الحرب ، يقذف نفسه في اتونها لا يرهب الموت ، وليس له من هم سوى اجتياح الاعداء :

واني في الحرب الضروس موكل باقدام نفسي ما اريد بقاءها
اذا سقمت نفسي الى ذي عداوة فاني بنصل السيف باغ دواءها
متى يأت هذا الموت لا تبقى حاجة لنفسي الا قد قضيت قضاءها

وهو تياه ببأسه ، وبأس قومه المساعير ، فالفضاء ملكهم:

ان الفضاء لنا فلا تمشوا به ابدا بعالية ولا بذنوب

وتتجلى في قيس روح الفروسية ، فهو لا يثير الحرب

قبل ان يثيرها اعداؤه ، حتى اذا هموا بها قذف نفسه بها غير هياب ولا وجل :

وكنت امرءا لا ابعث الحرب ظالما … فلما ابوا اشعلتها من كل جانب
أربت بدفع الحرب حتى رايتها … عن الدفع لا تزداد غير تقارب
فاذ لم يكن عن غاية الموت موقع … فاهلا بها اذ لم تزل في المراحب

والشجاعة مقرونة دوما لدى الكربي بالكرم ، واصطناع المعروف ، واغاثة الملهوف . وقيس بن الخطيم وفي لهذه المكارم التي اتخذها العرب مثلهم العليا . يقول :

ارى كثرة المعروف يورث اهله … وسود عصر السوء غير المسود
اذا المرء لم يفضل ولم يلق نجدة … مع القوم فليقعد بصغر ويبعد

وهو يدرك ان المال والاخلاق معارة ، ولهذا يجب ان يسخى بماله على الجميع :

فما المال والاخلاق الا معارة … فما اسطعت من معروفها فتزود

والعربي نزاع الى الحق يصدع الباطل بيأسه الشديد ، فلا عجب اذا كان دوما ثائرا على الظلم . ويهتف قيس بهذه الصرخة التي تتسم بالقوة ، والعقل الرجيح :

متى ما تقد بالباطل الحق يابه … وان قدت بالحق الرواسي تنقد
متى ما اتيت الامر من غير بابه … ضللت وان تدخل من الباب تهتد

فقوة الحق انصع من حق القوة . وهذا شعور انساني يتقد بالحصافة ، فبالحق تستطيع ان تقود الجبال ، وان كان الواقع المؤلم يصيح بغير هذا .. وقيس لا يستطيع هضم الذل الذي يدمغ الانسان بالعار ، ويقتل فيه انسانيته، فالارض تتسع لكل ابي :

وما بعض الاقامة في ديار … يكون بهما فتى الا عناء
ولم ار كامريء يدنو لخسف … له في الارض سير والتواء

والانسان ضعيف ازاء هذا الكون العجيب ، فكم تختلج في صدره الاماني العذاب ، ولكن الله يفعل ما يشاء :

يحب المرء ان يلقى مناه … ويابى الله الا ما يشاء

وفي شعر قيس بن الخطيم صورة غنية الالوان لنفسيته التي تفيض بالنبل ، فهو يتمتع بخصائص الكامل لدى العرب .. فالى شجاعته الفائقة ، وكرمه الفياض ، يتمتع بخصال كريمة لا تزال الانسانية تجد فيها املها المرتجى.. انه حريص على اخوانه ، كتوم لسرهم . يقول في حكمة واتزان :

اذا جاوز الاثنين سر فانه … بنشر وتكثير الحديث قمين
وان ضيع الاخوان سرا فانني … كتوم لاسرار العشير كنين

وهو حريص على الجار حرصه على انفاسه التي تتردد في صدره :

يهل يحذر الجار القريب فجيعتي … وخوني وبعض المقرفين خؤون

وهو عفيف لا يقري عينيه من جمال جارته :

وما لمت عيني لغرة جارة … ولا ودعت بالذم حين تبين

وهو حريص على هذه الخصائل الكريمة يدفعه اليها نسب تليد :

ابى الذم آباء نمتني جدودهم … ومجدي لمجد الصالحين معين

ويسمو الى روعته باقية في هذا البيت :

امر على الباغي ويغلظ جانبي … وذو القصد احلولى له وابين

فهو يعصف بالباغي ، ويحلو للانسان الوديع .

وفي هذا كله يصدر عن احساس صادق ، لا يلفق المعاني ، بل يندفع في التعبير عن مشاعره بعيدا عن كل تكلف .

وتامته المراة ، فاندفع اليها ينهل من معينها الذي لا ينضب شعرا يتوأمض بالحياة يتسم بحرارة الرغبة ، وصدق الاحساس مدلا بشبابه الاملود ، وجماله التياه الذي شده نساء يثرب . يقول :

تذكر ليلى حسنها وصفاءها … وبانت فامسى لا يطيق فراقها
ومثلك قد احببت ليست بكنة … ولا جارة افضت الي خباءها

وهو لا يمين في هذا ، فالروايات اجمعت على جماله البارع الذي ازدهق الباب فتيات عصره . واخذ يتفنن في سرد عواطفه يعتام التعابير التي تترقرق فيها الرقة ، ويقع احيانا على معان عذراء اتخذها الشعراء الذين اتوا بعده هديا لهم ، فهو اول من ابدع في وصف الطيف الذي يزور الحبيب بعد الفراق . يقول :

اني سريت وكنت غير سروب … وتقرب الاحلام غير قريب
ما تمنعي يقظى فقد تؤتينه … في النوم غير مصرد محسوب
كان المنى بلقائها فلقيتها … فلهوت من لهو امريء مكذوب
فرأيت مثل الشمس عند طلوعها … في الحسن أوكد نورها لغروب

وهكذا كان طيفها الذي طرقه تسرية عن هذا البعاد ، والشعراء حريصون على محبوباتهم ، فاذا حرموا اللقاء ، ففي المنام نعلة ، لهذه الرغبة المحمومة . يقول الشريف المرتضى في طيف الخيال : « فأما أبيات قيس هذه في الطيف ، فقد سبق اليها كل معنى غريب عجيب ، وهو قدوة في هذا المعنى لكل من تبعه » .

وهكذا راح قيس يفتن في وصف الطيف :

الم خيال ليلى ام عمرو … ولم يلمم بنا الا لامر

ولعل الحاحه على وصف الخيال الطارق راجع الى عمق احساسه بجمال المراة ، وشدة لهفته عليه ، فهو لا يتجه نحو امراة واحدة يمنحها قلبه ، بل كان ولوعابالجمال الذي تمثله الانثى في سحرها ونداوتها ، فاذا اخذت عيناه النهمتان حسناء ظلت صورتها تترسب في اعماقه ،ويفزع الخيال يستحضرها في ذهنه ، وهو في حقيقته لون من احلام اليقظة التي يلجأ اليها الانسان لتحقيق امنية عز تحقيقها ، ففي طريقه الى منى اثملته حسناء ، وكادت تدفعه للاقامة لديها لفرط اعجابه بها لولا اسراع الركائب. وعندما آب الى يثرب قفزت صورتها الحلوة الى ذهنه ، وحنت اعضاؤه اليها ، ووجد في طيفها تحقيقا لامنية خائبة . يقول :

ديار التي كادت ونحن على منى … تحل بنا لولا نجاء الركائب
تبدت لنا كالشمس تحت غمامة … بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ولم ارها الا ثلاثا على منى … وعهدي بها عذراء ذات ذوائب

وظعن الاحبة في بيئة تعتمد على مواقع الغيث له اثره في تنمية وصف الطيف الذي كان قيس بن الخطيم رائده في الشعر العربي . ومما لا شك فيه انه كان يعيش في بيئة مستقرة . غير ان بعض العرب الرحل ينتجعون يثرب ، وافياءها المرعة، ثم لا يلبثون ان يتفرقوا ، فيحس قيس بلوعة الفراق ، فاذا فرغ الى نفسه وجد في خيال الحبيبة تسرية عما يضطرم في قلبه من سعير الهوى . يقول مصورا الحبيبة وقد تهيأ اهلها للظعن :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو انهم وقفوا

انه يتمنى ان يمكثوا قليلا ليجتلي محاسن المحبوبة ذات الدل التي تفيض بالاغراء :

فيهم لعوب العشاء آنسة الدل عروب يسوؤها الخلق

وقيس بن الخطيم شأنه شأن الشعراء الجاهليين يفرق في وصف محبوبته وصفاً حسيا مخترعا لها التشابيه البديعة التي تجعلها مثلا اعلى للجمال لدى العرب مثل قوله :

تراءت لنا يوم الرحيل بمقلتي غرير بملتف من السدر مفرد
وجيد كجيد الرئم صاف يزينه توقد ياقوت وفصل زبرجد

وهكذا تكتظ في غزله الصور الحسية التي تجسد جمال المحبوبة . ونجده احيانا يقع في غزله على صور طريفة كاد ينفرد بها عن معاصريه من الشعراء ، فهو يمجد في حبيبته لون وجهها الابيض الذي تتفشى فيه صفرة :

تغترف الطرف وهي لاهية كأنما شق وجهها نزف

واحيانا يبدع صورا معنوية ، فحديث المحبوبة يروقه لانه طريف يتميز بنبرات موسيقية :

ولا يغث الحديث ما نطقت وهو بفيها ذو لذة طرف
تخزنه وهو مشتهى حسن وهو اذا ما تكلمت أنف

ويأسى في صدق لفراقها لان حبه قد شف منه الاحشاء، وخالط شغاف القلب :

اني لاهواك غير ذي كذب قد شف مني الاحشاء والشغف
بل ليت اهلي واهل اثلته في دار قريب من حيث نختلف
أيهات من اهله بيثرب قد امسى ومن دون اهله سرف
يا رب لا تبعدن ديار بني عذرة حيث انصرفت وانصرفوا

ولم يقتصر قيس بن الخطيم على الغزل بامراة واحدة ، بل كان تبع جمال ، لا يفرغ من حب حتى يقع في حب آخر ، وهو صادق في كل مواقفه لان الجمال يلهبه ، فينقاد اليه .. غير انه كان دائما يأسى لوداع حبيبته عندما يغيرها باخرى . يقول في نغمة حزينة عندما صرم حبله من كنود :

صرمت اليوم حبلك من كنودا لتبدل حبلها حبلا جديدا
من اللائي اذا يمشين هونا نجلببن المجاسد والبرودا
كأن بطونهن سيوف هند اذا ما هن زايلن الغمودا

وتبلغ مأساة قلبه نهايتها الفاجعة عندما يعبر عن احساسه لهذا الفراق ، فقد تراءت له لتقتله :

تبدت لي لتقتلني فأبدت معاصم فخمة منها وجيدا

ويتردد في غزله اسم عمرة . وقيل انها عمرة بنت رواحة اخت عبد الله بن رواحة ، وقيل هي بنت صامت بن خالد زوجة حسان بن ثابت . وكان حسان قد ذكر ليلى بنت الخطيم في شعره ، فجبهه قيس بذكر زوجه ، واكثر من ترداده ازراء به :

وعمرة من سروات النسا ء تنفح بالمسك اردانها

وليس في غزله لعمرة اي صدق ، فقد اتخذها وسيلة لمقارعة خصومه الخزرج ، يقول :

فما كان حب ابنة الخزرجي الا عناء والا غراما

وكانت الحرب دائمة الاحتدام بين الاوس والخزرج حتى كاد الحيان يتفانيان اولا ان ادركهما الاسلام . وامضى قيس بن الخطيم حياته في هذه الحروب ، وكانت مهمته مزدوجة ، فهو احد الفرسان المعدودين في الاوس يخوض الغمرات ، وهو شاعرهم الذي ينافح عنهم ، ويسجل انتصاراتهم ، ويهجو اعداءهم . وفي شعره تصوير بارع لهذه الايام ، تفيض منه انغام ملتهبة في وصف المعارك ، والغناء بمفاخر قومه ، ففي يوم الربيع اقتتلت الاوس والخزرج قتالا شديدا . وقال حسان بن ثابت مزهوا بقومه الخزرج :

ويثرب تعلم أنابها اذا قحط القطر نوانها

ورد عليه قيس بن الخطيم ناقضا قصيدته ، راسما صورة قوية لجلاد الاوس في الحرب ، فهم الكماة الذين ردوا الخزرج على اعقابهم :

رددنا الكتيبة مفلولة بها افنها وبها ذانها
وقد علموا أن متى تنبعث على مثلها تذك نيرانها
ولولا كراهة سفك الدما ء لعاد ليثرب اديانها

وهكذا اخذ قيس يمجد بطولة قومه في ملاحم قصيدة اخاذة تحتدم فيها روح قوية ، فهو في الحق شاعر الحرب عرف كيف يبدع في تصويرها لانه ذاق مرها ، وينتشي لواقع السيوف على السيوف . يقول في يوم حاطب مصورا انتصار الاوس على الخزرج الذين فزعوا الى اطمهم يتحصنون بها اتقاء لهجمات الاوس العنيفة ، مصورا جبنهم وفرارهم في نغمات تتقد بالحماسة :

فلولا ذرى الآكام قد تعلمونه وترك الفضا شوركم في الكواعب
فلم تمنعوا منا مكانا نريده لكم محرزا الا ظهور المشارب
فهلا لدى الحرب العوان صبرتم لوقعتنا والباس صعب المكارم
ظأرناكم بالبيض حتى لانتم اذل من السقبان بين الحلائب

ففي شعره تنتفض هذه الايام بضراوتها ، يصورها في حماسة ملتهبة ، وتجنحه شاعرية طلقة ، متغنيا بمكارم قومه ومفاخرهم ، منددا باعدائه وجبنهم ، لا يترك يوما الا ويتغنى به ، ويشفي غيظه من الخزرج الذين رسم لهم صورة شائهة ، فقد التقت الاوس والخزرج بالسرارة ، فاقتتلوا بها اربعا حتى نال كل فريق من صاحبه ، وبعد انتحاجزوا

آووا الى اطمهم . وجاء دور الشعر ، واندفع قيس يسجل هذه المعركة في شدو رائع :

فمن مبلغ عني شريد بن جابر ... رسولا اذا ما جاءه وابن مرشد
فاقمت لا اعطي يزيد رهينة ... سوى السيف حتى لا تنوء له يدي
فلا يبعدنك الله عبد بن نافذ ... ومن يعلوكن من الترب يبعد

وهو لا يقتصر على وصف الايام التي شارك فيها ، بل يتغنى بالايام التي غاب عنها ، فهي مفاخر قومه ، فلا بد من الاشادة بها . يقوم في يوم بعاث الذي لم يحضره :

وغبت عن يوم كنتني عشيرتي ... ويوم بعاث كان يوم التغالب
سل المرء عبد الله اذ فر هل رأى ... كتائبنا في الحرب كيف مصاعها
ولو قام لم يلق الاحبة بعدها ... ولاقى اسودا هصرها ودفاعها
ونحن هزمنا جمعكم بكتيبة ... تضاءل منها حزن قورى وقاعها
اذا هم جمع بانصراف تعطفوا ... تعطف ورد الخمس أطت رباعها
تركنا بعاثا يوم ذلك منهم ... وقورى على رغم شبعاء ضباعها

وقلما تجد شاعرا جاهليا كقيس بن الخطيم رافق ايام قومه ، ووصفها وصفا دقيقا ، فهذه الايام ينبوع شعره ، فهي التي تدفعه للغناء بها ، مزهوا بقومه ، متشفيا من اعدائه . ويبلغ الذروة في رسم صورة بطولة الاوس ، فهم مسعرو الحرب ، وسادتها ، يفتكون باعدائهم ، ويعفون عن السلب :

ان بني الاوس حين تستعر الـ ... حرب لكالنار تأكل الحطبا
ان بني الاوس معشر صدقوا الضـ ... رب وسنوا الاباء والندبا
فصمدوا راس كبش اخوتهم ... حتى تولوا واستنفروا هربا
بكل لين ماض ضريبته ... غضب اذا ما هززته رسبا
قالت بنو الاوس من عفافهم ... مروا ولا تأخذوا السلبا

رافق قيس هذه الحروب المتصلة بلهب حماسة ، وكلما هاجت ، واشتد اوارها ابدع في وصفها ، والغناء ببطولة قومه ، ويحيل الهزيمة الى نصر ، ويثير الحمية . حتى اضحى شعره النار التي تؤجج الحرب . والاوس يرددونه ابان المعركة ، وبعدها يثير حفائظهم ، ويدفعهم الى الموت في سبيل النصر . وكان من ايامهم يوم مضرس ومعس . ويبدو ان اليهود في يثرب تحالفوا مع الخزرج وخافت الاوس ان يكثرهم اعداؤهم ، فخرج الناس الى مكة يستعينون على الخزرج . ومن الطبيعي ان يتجاوب قيس مع هذا الحدث ، فنجده يثير الهمم ، ويدعو قريشا الى مشاركتهم في هذه الاحداث مستهينا بالخزرج ، محرما على نفسه كل لذة قبل ان يرى دماء الاعداء تخضب الارض . وهو في هذا كله مندفع اشد الاندفاع ، مطمئن الى النصر . يقول في لهجة تضطرم حماسة :

فلست لحاضن ان لم ترونا ... بخالدكم كانا شرب خمر
وتحمل حربهم عنا قريش ... كان بنانهم تفريك بسر
وتدرك في الخزارج كل وتر ... بذم الكاهنين وذم عمرو
ورثنا المجد قد علمت معد ... فلم نغلب ولم نسبق بوتر
متى تلقوا رجال الاوس تلقوا ... لباس اساود وجلود نمر
فنحن النازلون على المنايا ... ونحن الاخذون بكل ثغر

ورد عليه عبد الله بن رواحة بقوله :

كذبت لقد اقمت بها ذليلا ... تقيم على الهوان بها وتسري

وادت هذه الايام الى ايجاد ادب النقائض الذي اينع في العصر الاموي :

قال حسان بن ثابت : « قدم النابغة المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ، ثم انشأ يقول :

عرفت منازلا بعريتنات ... فاعلى الجزع للحي المبن

فقلت : « هلك الشيخ . ورايته قد تبع قافية منكرة . قال : ويقال انه قالها في موضعه ، فما زال ينشد حتى اتى على آخرها . ثم قال : الا رجل ينشد ؟ فتقدم قيس بن الخطيم ، فجلس بين يديه ، وانشده :

اتعرف رسما كاطراد المذاهب ..

حتى فرغ منها . فقال : انت اشعر الناس يا بن اخي . قال حسان : فدخلني منه ، واني في ذلك لاجد القوة في نفسي عليهما ، ثم تقدمت فجلست بين يديه ، فقال: «انشد، فوالله انك لشاعر قبل ان تتكلم . » قال : وكان يعرفني قبل ذلك ، فانشدته ، فقال : « انت اشعر الناس . » » .

والحق ان قيس بن الخطيم اوتي شاعرية طلقة ، فقد توفرت له دقة الاحساس ، والخيال الفني يبدع في خلق الصورة الشعرية ، والمقدرة على اصطياد التعابير التي تمتاز بموسيقاها ، والجو المتنوع الذي تنشره ، وهو لا يقول شعرا الا تحت تأثير دافع قوي ، وقد كان له في هذه الايام بين الاوس والخزرج خير معين لشاعريته المتدفقة . يقول :

الا من مبلغ الشعراء عني ... فلا ظلم لدي ولا افتراء

فهو لا يصدر الا عن عواطف حية تضطرم في اعماقه ، فلا كذب في احاسيسه ، ولا افتراء في شعره .. يقول ما يعتلج في اعماقه ، ولا يستطيع له كتمانا فيأتي شعره يروع معاصريه في استوائه وتدفقه وجزالته . ومما لا شك فيه انه لا يسمو الى طبقة فحول الشعر الجاهلي ، ولكنه يتبوأ الطليعة من الطبقة الثانية . وعندي انه اقوى شاعرية من خصميه حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة.

لقد عدا عليه الموت ، وهو في اوج شبابه ، وذروة شاعريته .. ورغم هذه المنية المبكرة نضجت تجاربه واستوى فنه . وكثيرا ما تقرأ له بعض المقطوعات التي تسمو الى قمة الفن الشعري بما فيها من حرارة ، وتدفق، واصالة .. وكثيرا ما كان يخلو الى نفسه بعيدا عن الحروب التي ملكت عليه تفكيره ، فنجده يستنطق الحياة عبرها العجيبة مثل قوله :

وكل شديدة نزلت بحي ... سيأتي بعد شدتها رخاء
فقل للمتقي عرض المنايا ... توق وليس ينفعك اتقاء
فلا يعطى الحريص غنى لحرص ... وقد ينمى لدى العجز الثراء
غني النفس ما استغنى غني ... وفقر النفس ما عمرت شقاء

مكة المكرمة

محمد حاج حسين

المرح والهزل في قصر العدل في فرنسا

من اساطين المحاماة

بقلم جان بول لاكروى　　　**ترجمة سمير شيخاني**

* * *

اذا كان لك قضية في قصر العدل في فرنسا ، وواعدك محاميك على اللقاء فيه ، فلا بد ان يقول لك : « قابلني في الساعة كذا ، في قاعة الخطوات الضائعة » .

انها ردهة الانتظار او المتنزه المسقوف في قصر العدل في العاصمة الفرنسية ، وهي فسيحة الارجاء ، مرتفعة السقف ، لكأنها كاتدرائية . وقد اطلق عليها بلزاك هذه التسمية «كاتدرائية المماحكة». ولعل محاميك «ومستشارك» يحدد مكانا معينا في صالة الخطوات الضائعة (نظرا لاتساعها وامكانية ان يتيه المرء فيها) فيقول لك مثلا : « انتظرني عند تمثال بيرييه » . فقد جرت العادة ان يواعد المحامون موكليهم لدى قاعدة هذا التمثال المهيب . ليس فقط لان التمثال تمكن رؤيته من بعيد ، بل لان بيرييه هو فخر مهنتهم ، « وهو الجد ، هو الرجل الكبير » .

ابصر انطوان بيرييه النور سنة ١٧٩٠ ، وانتقل الى العالم الآخر سنة ١٨٦٨ . وقد تولى الدفاع عن الماريشال ناي ، والجنرال كامبرون امام المحاكم الفرنسية بعد عودة الملكية ، كما تولى الدفاع عن شاتوبريان والدوقة دو بيري امام محاكم الملك لويس فيليب ... قبل ان يصبح في الجمعية الوطنية الخطيب الكبير في الحزب الذي كان يدافع عن حق الملك للفرع البكري من عائلة البوربون ، وبعد « الثاني من كانون الاول » من الد خصوم نابوليون الثالث .

ولا تدهش اذا تأخر محاميك في موافاتك في الموعد المحدد ، فالمحامون يتأخرون دائما ، ولهم اعذارهم في ذلك . فهذا المحامي بييرلوويل يقول : « في قصر العدل كل الناس ينتظرون : الموكل ينتظر المحامي ، والمحامي ينتظر الدعوى ، والدعوى تنتظر القاضي ، والقاضي ينتظر ... الترقية ! »

ولكي « تقتل » الوقت ما عليك سوى تأمل تمثال بيرييه الضخم المصنوع من الرخام الابيض ، الالاهتين اللتين تقفان الى جانبيه . فترى آذ ذاك ان الاهة اليمين قدمها تستريح على سلحفاة . وللحال تفهم ان هذه السيدة تمثل العدالة !

صحيح ان النحاتين ــ او مساعديهم ــ اناس يميلون الى الهزل والدعابة . فمقابل تمثال بيرييه يقوم تمثال ماليرب. وكان وزيرا سابقا في عهد الملك لويس السادس عشر ، ولكنه فقد حظوته لديه . الا ان ذلك لم يمنعه من المساهمة في انقاذه والدفاع عنه امام محكمة « الكونفنسيون » برفقة المحامين ترونشه وسيز ، معرضا نفسه للخطر .. وبالفعل كان من بين الثلاثة من فقد رأسه على المقصلة في ٢١ نيسان سنة ١٧٩٤ . وقد ذلت به القدم وهو يصعد الى خشبة الاعدام فقال بكل هدوء : « لو ان واحدا من روما حدث له ذلك لتشاءم ، وعاد من فوره الى منزله ! »

وتمثال ماليرب هذا يحيط به كذلك رمزان نسائيان من الرخام . الرمز الايسر يمثل فرنسا : اذا نظرت اليه وجها لوجه ابصرت الوجه الرزين والحركة النبيلة . اما اذا عن على بالك أن تدور حوله وتنظر اليه من الخلف ، او اذا كنت مصابا بتشنج في العنق ، فانك ، لا شك ، ستدهش ... فالثوب محشور كثيرا ، ويبرز هكذا دبرا يذكرك بفتيات المرابع الليلية . انها ، بلا ريب ، دعابة فنية لان صانعي التمثال لم يعتقدوا قط انها ستكشف ، لان التمثال صنع في الاصل ليسند الى جدار !

وعلى بعد عشر خطوات من هناك ينتصب تمثال «المحامي المحارب » : محام بردائه الرسمي راكع لدى قدمي الوطن الذي يضع فوق رأسه خوذة الجنود . ذلك ما اراد تجسيده النحات بارتولومه ، دون ان يفطن الى تعليقات الالسنة الخبيثة فيما بعد اذ يتأملون صنيعه الفني هذا ...

ولكن لنعد الآن الى بيرييه العظيم ... فلقد دافع بهذه العبارات عن الجنرال كامبرون امام قضاة الملك لويس الثامن عشر : « لا يجمل بملك ان يذهب بنفسه لجمع الجرحى من ساحة الوغى لكي يحملهم الى خشبة الاعدام. » ذلك بان كامبرون ، مثل المريشال ناي ، كان متهما بالخيانة . ولكنه نجح في انقاذ رأسه (لا شك ان القضاة في هذه الاثناء ، كانوا قد سمعوا بكلمة تاليران الشهيرة المأثورة : «الخيانة هي قضية تاريخ») ولقد تزوج كامبرون، مع ذلك ، وعلى الرغم من التعب الذي ناله بسبب هذه الدعوى ، فتاة انكليزية .

ولنعود مجددا الى بيرييه .. لامه يوما احد اصدقائه لانه يشغل باله بمصالحه قائلا : « ليس على المرء الا ان ينحني اذا شاء جمع المال ! »

فكان جواب بيرييه : صحيح ، ولكن ينبغي ان يجعلني أحد انحني ...

ولقد مثل هو نفسه امام محكمة الجنايات سنة ١٨٣٢ ، في مدينة بلوى ، لاشتراكه في مؤامرة الدوقة دو بيري ، ولكنه خرج منها بريئا . وكان قبل ذلك ببضعة اشهر قد نجا من الموت باعجوبة . اوقف في نانت من قبل الجنرال سولينياك ، حاكم الموقع ، فدعاه الجنرال الى العشاء وقال له وهو يبتسم : لقد استأذنت الوزير بقتلك رميا بالرصاص. وارجوا ان يأتيني الجواب منه ونحن نتناول الفاكهة والحلوى بعد العشاء .

* * *

سبب مبهم ولكن ليـلا بـين جفني مد جسر حياتي

يا صباحي ، متى اللقاء ؟ بقلبي قطع المرج تجتـدي القطرات

يا صباحي، وددت لوني على آهي وغنيت فـي خفى رفاتـي

اي ارث حملتـه من غمـوض غارق فـي الضياء والظلمـات

من سنين انا مريض ، اظن العمر ... والفجر مقفر الحانات

لـي زوج وطفلـة وفتى مـن جبل الحلم . كلهم يقظاتـي

اشتهي ان اضمهم بابتسـام لـم تجرحـه حسرة الحسرات

اي صحو ؟ نيسان يحمل عكازا وفـي خفيـة عـن الزهرات

ابيض الزهر ملء كفي وقلبي ونقي التلويـن فـي نبراتـي

غيراني ... وموجة العمر تنهار علـى شاطىء مـن الذكريـات

ما الذي مقبل ؟ ربيـع ؟ شتاء ؟ ما الذي راح عابـرا سكـراتي

حلب

علي الزيبق

وفي الواقع ، ووقت تناول القهوة ، وصلت برقيـة الوزير ، فلما وقف الجنرال على مضمونها ، امتقع لونه ، وبدا عليه الغضب . فناولها الى المحامي الكبير قائلاً له :

ـ خذ اقرا . . انهم يرفضون . يا لهم من دجاج بلله الماء!

ويقول بيرييه تعليقا على ذلك الحدث : منذ ذلك اليوم كرهت لحم البقر المتبل ، لانه كان هناك لون منه على المائدة تلك الليلة !

وهذا محام كبير آخر برز في القرن الماضي : شارل ـ الكسندر لاشو (١٨١٨ ـ ١٨٨٢) ... كان سنة ١٨٤٠ محامي الدفاع عن مدام لافارج التي انقذ رأسها . وكـانت متهمة باخطر واشهر قضايا العصر مع قضية «بريد ليون» .

وكانت ماري كابيل ، زوجة لافارج ، قد دست السم لزوجها العجوز فمات . وفي قضيتها تلك جرى الكلام لاول مرة عن الزرنيخ . وشطرت فرنسا شطرين بالنسبة الى براءتها او عدم براءتها ، وعرف الشطـران بانصار لافارج ، وبالمعادين للافارج . وقد اطلق سراح ماري كابيل سنة ١٨٥٢ ، فماتت بداء الصدر في السنة التالية ، ومات لاشو نفسه بعد تسع وعشرين سنة وهو يتأمـل رسـم موكلته الحسناء الذي طابه وهو على فراش الموت . فلقد كانت المرأة الوحيدة التي احبها حبا حقيقيا .

وكان للاشو ردود « وقفشات » لاذعة من ذلك ان احد ممثلي النيابة العامة قاطعه مرة في دفاعه قائلا :

ـ توقف عن الاشادة بمزايا المتهم فانك ستنتهي ولا ريب الى مطالبتنا بان نرفعه الى الكابيتول !

فقال له لاشو : آه ، يا سيدي ، المدعي العام ، فنحن نعرف أنك هاهنا لتحول دون وصوله الى كابيتول .

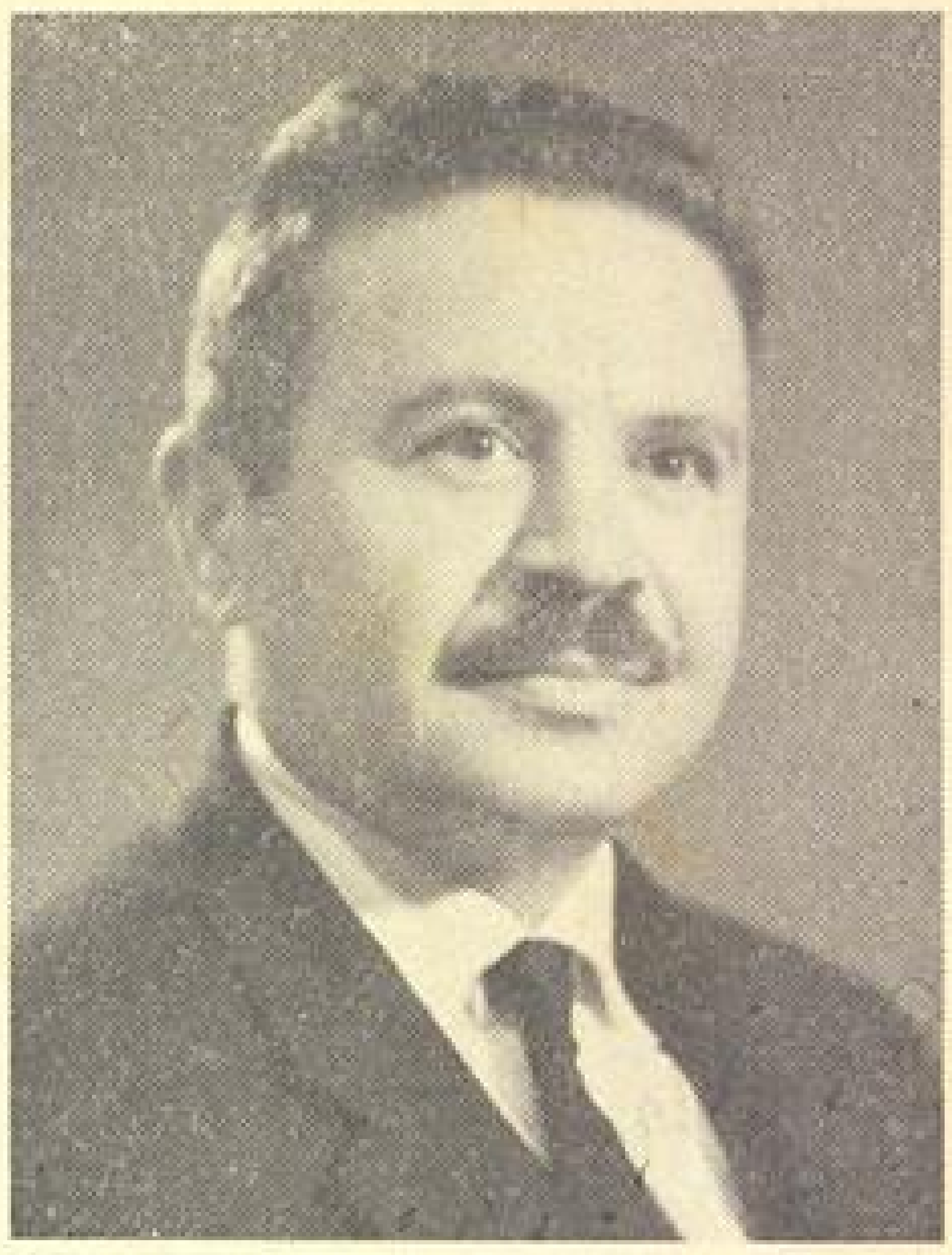
فكان لذلك الجواب وقع الصاعقة على المدعي العـام بسبب اشارة المحامي الى الاوز الذي انقذ القلعة الرومانية الشهيرة (الكابيتول) اذ ايقظت بصياحها المحاصرين فـي داخلها فهبوا للدفاع عنها ضد الهجوم الليلـي المفاجيء . وسكت المدعي العام .

واستقبل لاشو في بلاط كومبيين حيث التقى باديبين معروفين هما ادمون ابوت وبروسبير ميريميه .

وفي ذات يوم سألته احدى وصيفات الامبراطـورة ، وكانت فضولية فيما يتعلق بالاجراءات القانونية ، ما الفرق بين المدعي العام الامبراطوري (مدعي عام الجمهوريـة) والمدعي العام ، فكان جوابه :

ـ الامر في غاية البساطة ، يا سيدتي : اذا انت خنـت زوجك فالامر من اختصاص المدعي العام الامبراطوري واذا انت قتلته فالامر من اختصاص المدعي العام . هوذا كل ما هنـالك .

سمير شيخاني



يوسف عبد المسيح ثروة

القصة الغربية الحديثة

مهداة الى ميخائيل نعيمة اعترافا بفضله في النقد الادبي

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

*

احتلت القصة، في شتى صنوفها ، مكانتها الممتازة في الاعمال الادبية الحديثة منذ اوائل القرن التاسع عشر ولا زالت هذه المكانة تتعزز وتتعرى وتتذكر في الادب الاوربي الحديث في القرن العشرين ايضا سواء أكان ذلك في بواكيره ام في منتصفه ومقتبل خريفه وافوله .

والقصة فن من الفنون الجميلة ، وهي لذا تحتمل الدربة الطويلة والتلمذ الدائب الدائم ، والبصيرة النفاذة والالتفاتة الصائبة في اللحظة المؤاتية ، والقدرة الالتقاطية للمشهد الملائم ، حتى تتجمع اجزاء الصورة في ترتيب وتنظيم وتناسب وانسجام في البؤرة الروائية لكي تشع من هناك الى خيال الكاتب الذي يحولها في لحظات الابداع الى تعبير يترجم عن الواقع بل يجسد هذا الواقع تجسيدا تعبيريا تتكامل فيه معاني الروعة الادبية ، من ايجاز في الكلمات المنتقاة ، ودقة في رصفها وتصفيفها ، ومران يتساوق مع الزمن ويتبارى معه في التحسن والتفاضل واناقة طبيعية اخاذة في التحليل والتركيب ، وسرد قصصي يثنيء زمنيا عن ظروف الحوادث والحوادث بذواتها وابطالها وشخوصها والحبكات والعقد الفنية وما تنتهي اليه من حلول او من طرح مشاكل قديمة مستعصية او حديثة جادة يراد ان تناقش وتبحث عن المستويات الاسطورية والكلاسيكية والواقعية ، في شتى ضروبها وانواعها ومستقاتها ودلالاتها ورموزها .

فما هو العمل الفني بالتحديد ؟ وما هو العمل الروائي بالتخصيص والتدقيق ؟ وكيف تحدث لحظات الابداع في العمل الروائي ؟ اسئلة كثيرا ما جالت في خاطري وانا انقل العديد من آراء النقاد الادبيين الاوربين الى اللغة العربية . فاراني ، والحال هذه ، مدفوعا دفعا قويا الى تناول هذا الموضوع ودراسته دراسة تستجيب الى العمل النقدي استجابة هي وصميم عملي صنوان لا يفترقان ، وهذا ما آمله وارجوه .

العمل الفني على ما يذهب اليه معجم اوكسفورد « هو تطبيق المهارة على موضوعات الذوق كالشعر والرقص والدراما والانشاء الادبي يعني المقالة والقصة والاقصوصة ، وما اشبه... وهذه (يعنى المهارة) تتجلى في استعمالها الحديث خاصة ، في استكمال القدرة الفنية واستكمال تطبيقها ، وهو وحده موضوع قائم بذاته ». فعنصر المهارة التطبيقية في العمل الفني هو العنصر الجوهري الذي لا غنى عنه ولا مفر . والمهارة ، كما هو معلوم ، عمل مكدس متراكم ، هو تجميع وتجمع للتجارب الانسانية على المدى الزمني ، في صعيدية الراهن والبعيد الموغل في التأريخ البشري ، والمهارة جهد منظم فردي واجماعي في الوقت نفسه ، فهو خاص وعام ، يتفاوت ، في الجودة والامتياز، بتفاوت الظروف والشخوص والقدرات المتساوقة مع هذه الظروف والمبدعة لهذه الشخوص على وفق تلك الظروف والاحوال، وعلى حسب المناخ الفني الموائم اوالمعارض للعمل الفني المنشود . ومن هنا نجد ان العمل الروائي هو جزء من العمل الفني ، في شتى صنوفه وابوابه .

وقبل ان نعالج العمل الروائي علينا ان نسأل عن غرض الفن ، فما هو هذا الغرض ؟ يقول سومرست موم «غرض الفن هو الامتاع ، يتفق في هذا الصدد الشعراء والرسامون والفلاسفة . وهذه الحقيقة هزت مشاعر الكثير من الناس الصالحين ، ذلك بان المسيحية علمتهم النظر الى اللذة باعتبارها فخا لاصطياد الروح الخالدة (١) » الا ان الشاعر النمساوي ارنست فشر يرى رأيا مضادا لهذا الرأي في كتابه « ضرورة الفن » : « ملايين لا حصر لها تقرا الكتب وتستمع الى الموسيقى وتذهب الى السينما . لماذا ؟ لانها تبحث عن التسلية والمتعة والتفكه . هذا هو جواب هو نفسه بحاجة الى سؤال . لم يكون الامر ممتعا ومسليا وباعثا على التفكه لو نحن اغرقنا انفسنا في حياة الاخرين ومشاكلهم ، وانسجمنا في صورة أو قطعة موسيقية او اختلطنا مع شخوص معينة في قصة أو مسرحية او فلم ؟. واذا ما اجاب احدنا اننا نريد الهروب من وجود غير مرض الى وجود أغنى وابعث على الرضا ، عندئذ ينتصب سؤال ثان ، لماذا لا يرضينا وجودنا نفسه ؟ » ثم يستطرد فشر في اسئلته التي يجيب عنها تاركا اياها للناقشة والاخذ والرد الى ان يتوصل في النهاية الى غرض الفن الذي يتلمسه في تحويل المجتمع من حال الى حال في سلم تطوري تقدمي .غير ان غرض الفن لديه يقسم بدوره الى **قسمين**

هما السحر ، وهو يتضمن عنصر اللذة والامتاع ، والانارة وهي ما تعرف بالارشاد والتقويم . ومن هنا ، فان اللذة وهي عنصر يعترف به كل من فشر وموم على السواء ، لا تجد لها مجالا في المسيحية الرسمية ولا سيما في البروتستانتية والكالفينية ، على حين انها عنصر جوهري في الادبيات الوجودية ، وقد تبلغ حد الاسفاف الرخيص كما عرضته الكاتبة الوجودية المعروفة سيمون دي بو فوار في قصتها الشهيرة « المثقفون » وكما عرضه نابوكوف في قصته الذائعة الصيت « لوليتا » . ومن هنا ايضا نرى المذاهب الفلسفية والادبية في تضارب وتنافر في تحديد الغرض الرئيسي من العمل الفني الذي يضم هذه الحقول الواسعة من النشاط الانساني المبدع ، فمنها من يذهب الى المتعة الخالصة كما هي الحال مع سومرست موم واكبر دليل على ذلك قوله « أرى من الفن استخدام القصة منبرا او منصة . وانا مؤمن بحتمية انزلاق القراء فيما اذا حسبوا انهم قادرون على نيل المعرفة من هذه الطريق » وكلمة (منبر) تعني بطبيعة الحال التوجيه الديني اما كلمة (منصة) فتعنى التوجيه السياسي . ولو اكتفى موم بهذا القول لهان الخطب لكنه يواصل حملته على اهمية الفن من وجهة النظر الارشادية الى حد انفرادي مخطر حيث يجعل الفنان القاص مثلا شخصا هوائيا لا ضابط يضبط نوازعه وميوله ، تراه متقلبا لا يركن الى حال من استقرار ولا يعرف للهدوء النفسي ومن هذا يمكن ان يستدل على انعزالية الفنان واستبعاده عن شؤون مجتمعه وانفراده بنفسه ، هاك ما يقوله دليلا على ما ذهبنا اليه « القاص انسان واقع تحت رحمة هواه . فالموضوعات التي يختارها والشخوص التي يبدعها وموقفه حيالها كلها مشروطة بهواه . وكل ما يكتبه ما هو الا تعبير عن شخصيته وابراز لغرائزه الكامنة ومشاعره وتجاربه (٢) » وعلى هذا فالفنان القاص، بحكم ما ذهب اليه موم ، يكون والمجتمع على طرفي نقيض، لان ما ينتجه وهو ما يدمغه باسم الفن مشروط بهواه وتقلباته ونزواته .

العمل الروائي يتألف على ما يذهب اليه مارتن ترنل في كتابه « القصة في فرنسا » من (الشخوص) (والحبكة) و (الكيان) و (الشكل) وهذه الاركان الاربعة متضامنة في وجودها منسجمة في صلاتها واتساقها واتزانها وكل قلقلة أو اربلك او تراخ من ا يهذه الاركان يجعل الوحدة الروائية اثرا بعد عين ، ويقوض الوجود الروائي تقويضا تاما . والقصة على رأي ترنل « هي من اصعب الاشكال الادبية لان تجربة القاص اقل تماسكا من تجربة الشاعر والدرامي . ولذا فالناقد مضطر الى القليل جدا من الاستشهادات بدلا من استطاعته ان يعتمد على عمل ادبي كامل طبيعي ان يزبد هذا من خطر سوء التفسير والشرح» وصعوبة العمل الفني الروائي آت بالدرجة الاولى من اتساع آفاق الوجود البشري وعمق غور هذا الوجود وعدم استطاعة أي كان ان يلم الماما وافيا بهذا (الذي حارت البرية فيه) فتجربة القاص مهما تكن من اصالة وعمق وجدارة وبعد نظر وشمول فكر لا تتسع للكيان البشري اتساعا يجعل قدرتها على الاداء القصصي وافيا بالقصد والمرام . ومع ذلك بلغ بعض البشر الروائيين من هذا القدر من الاحاطة والشمول والهيمنة القصصية وعلى رأسهم ولاشك ليوتولستوي وهو على ما يعترف به ج. ب. بريستلي اعظم قاص في القرن التاسع عشر وقصته «الحرب والسلم» هي أعظم القصص العالمية اطلاقا كما اقر بذلك ج. م. كون في كتابه الشهير «تأريخ الادب الغربي». هذا من ناحية الشمول والاحاطة اما من ناحية العمق وسبر الاغوار النفسية الانسانية والكشف عن هذه القيعان كشفا اشراقيا رائعا فاننا نتجه رأسا وبصورة مباشرة الى فيدور دوستويفسكي مؤلف الروائع العالمية «الجريمة والعقاب» و «الاخوة كارامازوف» و «الابله» و «الشياطين». يقول كافكا بصدد شخوص دوستويفسكي : «انه (يعني دوستويفسكي) لم يتأمل في الوجود بل سعى من اجله جاهدا . فقتلته وحمقاه وعصاته وقديسوه ومقامروه ومرضاه في ظمأ لافح للوجود يتقربون اليه في واقع جهود دوستويفسكي واعماله الادبية ، من طريق المقامرة المنيفة بحياتهم . وهذا الوجود نفسه هو المسؤول عن قوة الجاذبية التي تجذب شخوصه المصروعه الى اسفل حتى انها ربما تذكرنا ولو بصورة سطحية بافلاس المدنية الحديثة . » اما دوستويفسكي نفسه فقد كان يؤمن بنوع خاص من الواقعية وهو يقول بهذا الشأن : «انا احب الواقعية فوق كل اعتبار ، هذه الواقعية التي تتاخم الخيال وهل من شيء أمعن في الخيال وابعد مما هو متوقع لدي من الواقع نفسه ؟ حقا ، هل من شيء اشد محالا من الواقع ؟ »

اما في الركن الاول من القصة واعنى (الشخوص) فقد انقسمت القصة الحديثة الى فرعين احدهما يعنى عناية خاصة بالانسان الفرد ، بـ (الفرد الحساس الذي اصبح سجين حساسيته) على ما اتاه مارتن ترنل في كتابه آنف الذكر ، ثم يستطرد في هذا الخصوص فيتهم الطبيعية ، المذهب الطبيعي وكان على رأسه اميل زولا وهو الذي اثر على فرانك نوريس مؤلف قصة « الاخطبوط » الشهيرة في الولايات المتحدة ، يتهمها بانها الفرع الثاني من القصة الحديثة، اذ هي لا تعمل شيئا غير واصف جحافل الحزب وهي بالتالي كانت ارهاصة طبيعية للقصة السياسية الحديثة محاولة منها لتحطيم آخر معاقل الفردية (٣)

(١ و ٢) مقدمة « عشر قصص وواضعوها » لسومرت موم ، ترجمة . ي.ع. ثروة الاديب ، ابريل ١٩٦٤ (٣) انظر كتاب ادوين موير « الانسان الطبيعي والانسان السياسي » في « مقالات في الادب والمجتمع » لندن، ي.ع. ثروة . (٤) ملاحظات عن القصة الحديثة . بقلم م.كوزنتسوف. الاديب يوليو ١٩٦٢ .

اما الكيان القصصي فهو البناء الذي يشاد آجرة آجرة وطابوقة طابوقة وفق تصميم هندسي له بداية ووسط ونهاية حسب تسلسل زمني لا تخلخل فيه ولا اعتباط ولا ارتجال ، يسير مسار الحياة بغير اختلاطات مفتعلة والتباسات متكلفة ومفاجات صبانية غيبية او رومانيسية وهذا الكيان ينمو نموا طبيعيا والمعمار الهندسي هنا هو المؤلف الذي يجيد في معرفة فنه اجادة طبيعية تجعل القارىء يشم رائحة الكحول المنبعثة من افواه (الشخوص) ويميز بينها على ما اشار اليه احد النقاد البارعين بخصوص احدى قصص بلزاك ، وهو الكاتب العبقري الذي مهد للواقعية تمهيدا رائعا فاشاعها اصيلا يتصل بجذور المجتمع فيعرضها كما هي بغير رتوش او رتوق ، فان كانت نخرة آسنة حق ليد الاصلاح اجتثاثها من مصادرها ، وان كانت، ريا نسغها حي دافق كانت عونا لاشجار الحياة الباسقة لان تبسق اكثر فاكثر وتنهض بشموخ وانفة واستعلاء . وهذا النوع المتميز من الكيان القصصي يمت الى الكلاسية باوثق الصلات ، ان لم نقل انه والكلاسية وجهان لعملة واحدة .

وفي هذا الشأن يتحدث موم : « لا بد للقصة التي يريد المؤلف سردها ان تكون منسجمة مقبولة عقلا ، لها بداية ومنتصف نهاية : هي نتيجة طبيعية للبداية ، اما الحوادث المهمة فينبغي لها ان تكون محتملة لا تطور الموضوع حسب بل تنمو من داخل القصة نفسها » فالنمو الداخلي في الكيان القصصي شرط ضروري من شروط نجاح العمل الروائي ، وهذا النمو يتصل بالحبكة او العقدة اتصالا مباشرا لان خيوط العقدة تتجمع وتتشابك وفق خطة مسبقة مدروسة قد تنتهي نهاية يتوقعها كل من المؤلف والقارىء، وهذه طريقة لا زالت سارية المفعول في كثير من بلدان الغرب والشرق على السواء ، على ان هناك مدرسة حديثة لا تهتم بالتسلسل المنطقي الزمني ولا بالسببية الواقعية فترفض كل ذلك رفضا ومن أرباب هذه المدرسة في فرنسا الين روب غرييه وناتالي ساروت وميشيل بوتور وقد تحدث الناقد الفرنسي بيرنار دورت عن هذه المدرسة فقال : « ان هذا الضرب من القصة لا يستند في اي حال من الاحوال الى العلاقات بين الناس وبين العالم وان غرضه هو وصف خواء الليل المخيف والعالم المسكون ؟ هذا عن المدرسة (الخوائية) الفرنسية ، غير ان ثمة مدرسة اخرى هي مدرسة (تيار الشعور) فقد انتقدها ولنفانغ كايسر مؤلف كتاب «اصل القصة الحديثة وازمتها» بكثير من العنف اذ قال عنها : «لا يستطيع احدنا الا ان يسأل : من هؤلاء الذين يهتمون بهذه الكتب غير الاطباء النفسيين والاطباء الاعتياديين ، وحالما تفقد المادة القصصية سحر الجدة تصبح مثار سأم القارىء او شعوره بالقرف . » لكن هذا لا يعني ان الحبكة الواقعية هي عمل متكالف اصطناعي، فهي عندئذ تفقد حيوية المحيط المتصل بها وتقطع صلتها الاساسية بكيان القصة باعتباره الصرح الشامخ للقصة . وعامل الخيال في الحبكة القصصية عامل مهم كل الاهمية اذ هو الذي يجعل التأزم في الحبكة ضرورة حية لشد القارىء الى القصة بالف صلة وصلة والى اهمية الخيال هذه اشار الكاتب الناقد باليفسكي اذ قال : «ان كل عمل اصيل فني يخضع الى الخيال . فالظروف والشخوص والموضوع هي صنوف تابعة للعمل الذي ينظم كل تفصيل (من التفصيلات) ويربط بينه وبين غيره ، مبتدئا بميزات لغة المؤلف ومنتهيا بشخصية البطل ، واذا ما ظهر نشاز شيء منعزل ، فهذا دليل أكيد على أن مبدأ غير فني ، مبدأ غريبا قد تدخل في الصنيع الفني . » يقول ترنل في كتابه سالف الذكر : « أن القاص يسعى لايصال تجربة متخيلة الى قارئه . وهو لا يسعى الى ذلك بفرض نموذج من حساسيته الخاصة من طريف اللغة . حسب ، بل يعمل لتحقيق ذلك بوسائل ايحائية شتى تجعل للقناعة الشخصية لدى القارىء نصيبا أوفى . »

اما الشكل وهو الواجهة الخارجية للكيان القصصي ، فيقتضي اتقانا فنيا خاصا يتضمن فيما يتضمن استيعابا شاملا للغة التي هي الوسيط الضروري لنقل الحساسية الخاصة ، وايصالها الى القارىء بصورة عفوية طبيعية لا تكلف فيها ولا تصنع ، هذا فضلا عن حسن اختيار للكلمات المناسبة في الجمل المناسبة واقتصاد في استعمالها ولطف وليونة في تناولها ومعالجتها بحيث تجري هذه الكلمات في مجراها الطبيعي هادئة ساكنة ، حين تقتضي الحال ذلك ، وتسرع عنيفة مدوية شديدة التأثير ، عاصفة مدمرة حين يتطلب الامر ذلك ، وفي كلا الحالين ، على الكاتب الا يفقد سيطرته على مجاري الكلمات ومصابها ، والا انفلتت منه ادارة البناء الهندسي وتبعا لذلك انهار الكيان بكامله انقاضا متفرقة وتبعثرت الشخوص اشلاء ممزقة . وهذه نتيجة طبيعية لمن لم يأخذ للامر عدته حين يقبل على الكتابة متسرعا متهورا كأنه يريد أن يقوم بنزهة في زورق حالم على صفحة ماء هادئة في ليلة قمراء ساجية !

وعلى ذلك فالقصة كما يقول ج. ب. بريستلي فيكتابه «الادب والانسان الغربي» : «لا ينبغي ان يكون فيها افراد مقبولون بصفتهم شخوصا (قصصية) بل ينبغي ان تحرك هذه الشخوص في مجتمع معروف السمات . » وهذا يعني تلاحما بين الشكل والمضمون ، او بين الشكل والكيان بعبارة اخرى ، تلاحما يجعل التمييز بينهما امرا غير ممكن ان لم نقل مستحيلا ، وكلما كان التلاحم قويا ازداد الكيان القصصي تماسكا وتمايزا والفا واثارة وتأثيرا . وقد قال احد عباقرة الفن ، على ما يحضرني : ان الطبيعة اقوى من الفن ، ولذا يصح لنا ان نقول متأكدين من قولنا ان القصة كلما كانت اقرب الى الطبيعة كانت اعمق اصالة وارفع مكانة وكلما كان الفن القصصي اقرب الى النفس البشرية وادعى الى حبه كان تأثيره اخلد وابقى .

صورتها

انت ذي ، ام فتنة للناظرين ؟ بشر ؟ ام نفحة الروح الامـين ؟
سكرت روحي فتاهت في رؤى حالمات بـين شك ويقين ...
هذه الصـورة مـن ابدعهـا ؟ من ثرى اودعها السحر المبين ؟
مـن كسا هيكلها قدسـية وحبا العينين طهـرا والجبين ؟
انت مـن نـار ونـور قبس كذبوا ما انت مـن مـاء وطين
قل لهـذا الزمن العاتـي اتئد لا تنل منها ، وكفي يا سنين ؟

لندن

سعيد العيسى

من « العروة الوثقى »

وبعد اين لحظات الابداع في الفن القصصي ؟ يذهب فشر في كتابه «ضرورة الفن» السابق ذكره الى « ان الالهام المخمور ليس حالة من حالات العمل الفني مطلقا ، وليس العمل الفني هذا الا عملية عقلانية شديدة الوعي رفيعته ، وهو اذا ما انبثق الى الوجود جاءه واقعا من يد أستاذ قدير . »

الا ان بولتزر وهو كاتب الماني يعارض هذا الراي ويعد الالهام او الابداع بالمعنى من الكلمة امرا واقعا ويستشهد على ذلك بشواهد كثيرة نستجزىء منها بعضا خوف الملل والاطالة ، التـي اضطررنا اليهـا اضطـرارا . يتحـدث دوستويفسكي عن الامير ميشكين في الابله فيقول : «انه يتذكر في غضون نوبات صرعه ، او قبلها مباشرة ما كان يحس به بالتجربة في لحظة او لحظتين ، حين كان قلبه باسره وذهنه وجسمه في حالة انتفاضة ويقظة ووفرة من الحيوية والنور ، وهكذا كان يصبح مفعما بالفرح والامل ، اما همومه فكانت تبدو وقد تبددت الى الابد . » لحظة من « الانسجام والجمال في ارفع مدراجهما ـ لحظة مـن الاحساس الطافح بالسرور والانشراح بالنشوة الروحية والحياة الكاملة» الا ان بولتزر يوفق بين هذا الالهام وبين حادثة عنيفة وقعت لدوستويفسكي فيقول : «ليس مـن الصعب ان نرى صلة بين لحظة التوتر الشديد هذه والتركيز الذاتي وبين تلك اللحظة الحاسمة في الساحة المقابلة لقلعة بطرس وبولص حين تمكنت المحبة في النهاية من السيطرة على قلب دوستويفسكي . فكلا اللحظتين رمـز لانبثاق الذات وتغلغلها في عوالم ادراك شامل للمحبة الاخوية . »

ثم يشرح الامير هذه اللحظات بالكلمات الاتية : « لم تكن هذه اللحظات غير هواجس ثانية واحدة ... هذه اللحظات القصار التي تحملني على الشعور بنفسي وبالتالي بوفـرة من الحياة اكثر من اي وقت آخر ، لحظات لا تنفصم عـن المرض وعن تمزق فجائي للاحوال الطبيعية ... كنت اشعر كأنني فهمت هذه الكلمات المدهشة : لن يكون ثمة زمن بعد الان . » ثم يسمي بولتزر هذا الشعور انعزالا عن الزمن فيقول مقارنا بين شعور بروست وشعور دوستويفسكي: « وهذا الشعور بالانعزال عن الزمن الذي جربه دوستويفسكي اثناء نوباته لا يختلف كثيرا عن شعور بروست اذ اصبح بالقياس اليهما قاعدة اصولية في فنهما . » ثم لا يكتفي بولتزر بهذه المقارنة والمقايسة بين الشعورين المتشابهين بل يذهب بعيدا ويوغل في هذا الصدد ايغالا شديدا الى حد انه يقول : « ان لحظة انعدام الزمن ، او الزمن المذاب او المحطم او حين تغزو الهواجس الذاكرة فيغتني كلاهما ، هذه كانت لحظة الابداع والخلق » .

وهي لحظة أشترك فيها بروست وكافكا وغيرهما مـن الكتاب الذين اصيبوا في أجسامهم بعلل كانت اسبـاب ابداعهم والتحليق بهم الى عالم غير عالمنا ولو انه في الجحيم منه ، وطبيعي ان تكون لهذه اللحظات تأثيرها العميق فـي شخوص كل من ابطال دوستويفسكي وبروست وكافكا ، وقد تحدثنا اليوم عن بطل واحد هو الامير ميشكين بطـل « الابله » ونرجو أن يسعفنـا الحظ للتحدث اما عـن راسكولنيكوف بطل « الجريمة والعقاب » في عدد قادم او عن ظلمات الالهام المأسوي في قصة « القضيـة » لفرانز كافكا . ان هذه الأحظات من الابداع والالهام في القصص الحديثة والقديمة ، امور ينبغي التوفر لها بالدراسة والنقد والتمحيص ومعالجتها بما تستحق من صبر على العمـل ومصابرة على النفس وجلد على التحمل والمثابرة .

بغداد

يوسف عبد المسيح ثروة

قصة

ساعود لاقول مرحبا

بقلم وديع العريضي

خرجت من مكتب عملي في شارع الحمراء . سرت شارداً مع افكاري . اطوي الشارع الطويل ، المتجه نحو الجامعة . وهج الشمس يتراقص في الفضاء . يصطدم بالابنية الشاهقة . يستقر في الشوارع . يعلك النسمات الباردة يلفظها زفرات ساخنة ، محرقة ، . الزفرات تلسعني . قرص الشمس يدوس راسي . يدوس جسدي . والشارع الطويل ينطوي تحت قدمي ..

... الصيف محرق في المدينة . المدينة آتون نار في الصيف .. الناس تتناثر هنا وهناك . الشارع يعج بالسيارات السيارات تضج بالهدير . سيارة وقفت بجانبي . ناداني السائق: ـ (استاذ .. الى البرج ؟..) لم التفت اليه . بقيت سائرا .. سائرا .. انا ذاهب الى البرج ؟ .. من هناك سأركب الباص الذي يقودني الى قريتي .. اذن ، لماذا امشي هذه المسافة الطويلة ؟ السيارات .. السيارات تتناثر امامي .. كلها .. كلها الى (البرج) . في جيبي بضعة دراهم فقط .. احتفظ بها اجرا للسائق الذي يقلني الى بلدتي .. انا مجبر على السير على قدمي ، والشمس تلسعني بشدة . ارى جسدي يذوب ويسيل تحت وهجها البراق .

هناك في زاوية الشارع . استقر مقهى كبير . بلع موائد متعددة . تناثر تحولها الزبائن . في كبدي حريق . في امعائي تقطع . في عيني زوغان وشرود . وقفت أتأمل المقهى . اتأمل الزبائن الذين يزرعون كؤوس المرطبات في اجوافهم .. ينتعشون . المراوح تدور في المقهى . ترطب الهواء . تلطفه . تطرد غليان الشمس . تطرد الحر القاتل . آه .. لو ان في جيبي بضعة دراهم . هناك .. في المقهى .. الهواء منعش ، رطب .. والماء مثلج لذيذ ..

هذا الغثيان .. هذا الغثيان .. يقتلني . والدرب امامي طويلة .

تمنيت التقاء صديق اقترض منه بضعة قروش . تمنيت لو اصادف من يدعوني لزجاجة مرطبات . لجرعة ماء باردة . الشمس . الشمس تحرق كبدي . تلسعني بشدة ..

تابعت السير . حبات (العرق) تتناثر بين قدمي رطبة .. رطبة . قدماي تنزلقان في الحذاء . الاصابع كادت تثقب لها طريقاً من (النعل) . الدماء كادت تنزف من الاصابع . وصلت محطة الجامعة .

... مر القطار .. القطار يزعق .. يزعق !!

آه .. لو ان في جيبي خمسة قروش اضافية خمسة قروش .. كنت اتسلق القطار . كنت اوفر عناء مواصلة السير من الجامعة .. الى (البرج) .

والشمس لا تزال تحرقني . فكرة طرأت لي .. لن أسير بعد الان ساختلس خمسة قروش ادفعها لجابي القطار . سأختلسها من الاجر الذي احتفظ به لجابي (الباص) .. سأدفع الاجر لجابي الباص ناقصا خمسة قروش .. ليقل ما يشاء . وليتصبب العرق مني خجلا امام جمهرة من الركاب .. !

لن امشي بعد الان ! .. كيد الشمس يعميني ، يقتلني .. !

واتجهت نحو محطة المنارة . هناك سأترقب مرور القطار .. هناك بلعني الزحام وانا انتظر ..

من زاوية تلك (المحطة) . شارع يتجه نحو الحمراء . أن نظرت خلفي من حيث اقف ، اشرفت على مسافة شاسعة من ذلك الشارع .. صدرت منه ضجة مزعجة .. تلفت .. كان اصطدام سيارتين . وقع على عشرين مترا مني في ذلك الشارع فدفعني فضولي للاقتراب من مكان الاصطدام . تناسيت الاصطدام بعد مسيرة خطوات . لماذا ؟ .. وقع نظري على صبيتين تسيران امامي . تحثان الخطى . لم تنظرا نحوي . لم ار وجهيهما . مع ذلك ، تذكرت احداهما .. انها .. انها .. عرفت انني اعرفها .. لي معهما ذكريات صبيانية .. عرفتها مذ كنا فتيان . عرفتها وعموم عائلتها . كنت اكرر الزيارات لمنزلهم .. سمح لنا بالخروج معا الى رحلات في الضواحي . الى مشاهدة الافلام سمح لنا بالانفراد .. ومع اننا كنا فتيان .. لعبنا لعبة الشباب .. ثم مللنا .. وافترقنا .. وافترقنا !.

الان ، رأيتها .. انجلت امامي صفحة الماضي .. شببت انا .. شبت هي .. الصبيتان .. لا تزالان تسيران امامي .. سأحث الخطى . سألحق بهما جنبا الى جنب .. ستراني .. ستدهش .. ستصافحني بشوق .. ثم تدعوني لزيارتهم .. لن اتردد .. سادخل المنزل .. سأزورهم .. سأشرب الماء البارد ، وزجاجة مرطبات .. سأستريح من عناء الحر المضني .. استريح فترة الزيارة !..

لم يحدث كما توقعت .. وصلتا مدخل المنزل . دخلتاه معا قبل ان التقي بهما .. احداهما اعرفها .. اعرفها .. والاخرى ؟.. يجب ان تكون صديقتها ..

وصلت الى هنا .. الى مدخل المنزل .. لن اتراجع ـ حدثت نفسي بذلك ـ على كل حال ، سأقوم بالزيارة ..

دخلت بوابة المنزل .. اطلت على حديقة صغيرة .. عجوزة متهالكة .. يبدو ان الصيف انهكها ..

الممر في الحديقة ، يطل عليه دار المنزل

منابع

عندما يشتد الهجير
ويهرب السحاب ... وترتخي الايدي
وتغلق العيون الاف القباب من الضباب
تمضغني الساعات بانياب كسوله

عندما تتوقف الاغصان
ويغدو الكون لوحة خرساء
وتغدو خطى الشياه رتيبة كئيبة
اضيع اتلاشى في ملل

وحين يصمت الخيال

ويغرب الربيع والحجل
ويعمر مرجنا الهشيم
تكثر الهوام
اغدو نهب مخاوفي

سياج حديقتي هوى .. غدت للسارقين
عندها لا شيء مني اضعف
افعي خلف جدار
اغدو عيونا على طريق
تضيع في المدى

الاردن — اميرة أبو حجلة

.. دار المنزل . احيط بواجهـــة زجاجية ، لها ستائر من الداخل .. تسدل . فتحجب الانظار ..

من خلال الواجهة . رأتني الصبيـة التي اعرفها ، بينما كانت تقوم بعملية اسدال الستائر . اسرعت الى الباب قبل ان تفتحه ، رايتها تهمس فـي اذن رفيقتها بضع كلمات .. اسرعت بعدها الرفيقة الى الداخل . الـى صالون واسع . يفصل بينه وبين الدار واجهة من الستائر المخملية .

فتح الباب فجأة . تصافحنا بحرارة بلعتنا الجدران . وغاصت عيناها في عيني .. وغاصت عينايا في عينيها ، وجالتا تبحثان بصمت ، عن اماكـن فتنة الجسد .. لقد اصبحت صبية جميلة .. آية في الجمال . كل ما فيها كان يصرخ بالفتنة والاغراء . وعلى شفتيها الحلوتين تربعت بسمة ناعمة ..

– تفضل .. اجلس ..

واستفقت من شرودي على صوتها الموسيقي الدافىء . وحانت منـي التفاتة الى الداخل .. الستائـر المخملية لم تسدل بعد . لم تفصل بيننا وبين من في الصالون !.

فرش الصالون بأرائك ثمينة. واجهة الارائك معكوسة لمن يجلس في الدار.

ذهلت عندما رأيت شابا يغوص في احد الارائك . يغوص حتى رأسه !. لم يتحرك . لم ينظر الي . كأنه كان يخشى ان اراه !..

بجانب تلك الاريكة.. وقفت الصبية التي لا اعرفها . نظرت الي بعينيـن مبهوتتين.. بعينين مرتعبتين. كأنها تخشى شيئا .

واستفقت من ذهولي على ذلك الصوت الدافىء يدعوني من جديد – تفضل اجلس – لم اجلس . وبحركة لاشعورية كانت يدي تعبث بصحيفة وضعت على منضدة امامي. وبطريقة لاشعورية سألت الفتاة :

– اين والدك ؟..
– في العمل ..
– متى يعود ؟..
– سوف لا يعود الى هنا – سيصعد الى الجبل – العائلة كلها في المصيف سأوافيهم في الغروب .. تفضل .. اجلس..

تكلمت وكأن في ذلك دعوة صارخة لابقى . كأنها تقول لي انا هنا بمفردي .. اجلس لنستعيد ايام الصبا . ايامنا الماضية الحلوة ..

اعرف جميع افراد تلك الاسرة . ذلك الشاب لا اعرفه !.. ليس في البيت احد .. انه بطل دعي لمغامرة .. هما اثنتان .. هو واحد .. انا؟

.. تدعوني لاكون البطل الثاني .. عيناها حدثتاني بذلك . شفتاهـا تقطران شهوة . ومع ذلك لم ابق !.. وبأرتباك لا اعلم سببه . مددت يدي لمصافحتها قائلا: (اورفوار) وصافحتني بحرارة قائلة : – لماذا لا تبقى ؟..

قبضت رمانة الباب . لم يفتح !. كان مقفلا بالمفتاح . وانحنت امامي تفتحه بلطف . وهمست للمـرة الاخيرة :

– ابقى ..
– اورفوار ..

بصقني الباب . ثـم اقفل .. سمعت صرير القفل بأذني .
وكأنني استيقظت من ذهول اعمى . تلك (الاورفوار) اللعينة .. لمـاذا تفوهت بها ؟ لماذا ؟.. لماذا ؟.. لماذا لم اجلس ؟.. لماذا هربت من المغامرة طالما اشتهيتها ؟..

.. وحثثت الخطى في الشارع . متناسيا لهيب الشمس . متناسيـا عطشي . متناسيا الامي !..

وهرعت الحق القطار .. لكننـي سأعود .. سأعود بعد بضعة ايام .. اعود لاقول :

مرحبا .. لقد جئتت من جديد..

بيصور – لبنان — وديع العريضي



مكتبة الاديب

عبد الله فكري

تاليف محمد عبد الغني حسن ـ ٣٢٤ صفحة ـ صدر في القاهرة ـ (المطبعة ؟)

اعجبني في هذا الكتاب ، المناقشة العلمية التي تصدت لكل قضية من قضاياه ، وفندت كل رأي ورد فيه ، وجعلت من عبد الله فكري ، قضية من قضايا العلم والادب ، أحق بالدراسة ، واولى بالبحث ، بعد ما ران على هذا الرجل العظيم احقاب من النسيان ، وغدا من الاساطير .

بدأ الاستاذ محمد عبد الغني حسن كتابه : « عبد الله فكري » بالمامة موجزة عرفت به في سطور من مولده الى انتقاله الى جوار ربه ، ثم قسم بحثه الى عدة ابواب ، او فصول ، فعرض للبيئة التي نشأ فيها عبد الله فكري وتأثره بها ، وموقفه منها واساتذته وتوجيهه هذه الوجهة الدينية ، والشيوخ الذين احاطوا بهذه الشخصية الفذة ، وما أثر لهم ، وحب عبد الله فكري لهم ، ونزوعه الى الصوفية السهلة ، وموقفه من هذه الطرق ، واختياره لابسط هذه القواعد ، المتفق عليها بين هؤلاء المتصوفة ، والعصامية واثرهما في نفسه ، ثم عبد الله فكري بين رجال المعارف ، ومقالات الشيخ محمد عبده ورأيه في وكيلها ، ثم انتظام عبد الله فكري بين ثوار الثورة العرابية ، وتبريزه في مؤتمر المستشرقين ، غير الرحلات التي قام بها في مختلف بلاد الشرق .

ولم يفت الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، ان يذكر اثر عبد الله فكري في تجديد لغة الدواوين ، وادب الرسائل الخاصة ، ثم عبد الله فكري كشاعر ، وموقفه من حكاية التواريخ الشعرية ، ودوره في العلوم الطبيعية والعلم الحديث ، وما انبثق من القضايا ، وما وجهه الشاعر الى ابنه من النصائح ، وما اتسم به من خلق ، ثم هذا التوازن بين الدنيا والاخرة ، وحرفته في اخريات ايامه ، وممازحته وفكاهاته ، وما ترك الرجل من ثروة فكرية ، تزيد على الستة عشر كتابا ، غير بحوثه التي لم تطبع ، واشعاره التي لم يكتب لها البقاء ، وضاعت كما ضاع غيرها من البحوث والرسائل والاخوانيات .

ولقد ختم الاستاذ محمد عبد الغني حسن كتابه : « عبد الله فكري » بما قيل من رثاء وما سكب على اثر رحيله من دموع ، وما تبارى فيه الشعراء والكتاب على السواء ، تمجيدا لذكرى الرجل ، وعرفانا بفضله على اللغة والادب ، واعترافا به في كل ميدان من ميادين الاصلاح التي تصدى لها ، او اشترك في تخطيطها ، او سافر يدعو لها ، ويضع بذرتها التي اتت أكلها ، وعم نفعها ...

والواقع ، ان هذه القضايا الكلية ، قد استغرقت هذه الصفحات التي زادت على الثلاث مئة ، ولو كان الامر بيد الكاتب الكبير محمد عبد الغني حسن ، لزادت مئات ومئات ، دون ما ملل ، او تعثر ، او حشو ، او تشويه لمعالم البحث .

فالاستاذ عبد الغني حسن ، يمتاز بالعرض المشوق ، والمقدمات التي لا بد منها بين يدي بحوثه ، وذكر الملابسات والضميمات التي يحتاج البحث اليها ، وان تكلف في هذا كل عناء وتعب ، وضحى براحته في سبيل تحقيق حادثة ، او السفر للمشافهة والاطلاع ، واستقاء المعلومات من مصادرها الاصلية ، حتى يكون امينا فيما يكتب ، موجها الى خير ما ينفع الادب ، لا يهمه الذكر او يطربه الثناء .

والمطالع لكتابه هذا ، يدرك لاول وهلة ، من الصفحات الاولى ، التي ألمت بتاريخ عبد الله فكري وبيئته ، ان هذا البحث لا بد له في غنى المكتبة العربية ، ووضعه بين الكتب النافعة ، التي لا يستغني عنها اديب او باحث ، مهما كان شأنه او علا كعبه في البحث والدرس ..

فلقد تعرض الاستاذ محمد عبد الغني حسن، للنشاة الاولى لعبد الله فكري ، وحقق نسبه وكفالته وما اريد له وما وجه اليه ، وما اثر فيه ، ثم بيئته العلمية والشيوخ الذين اكتنفوا حياته ، واحاطوا به ، ونظام الازهر ، والتدريس فيه ، والاجازات العالية التي كانت تمنح للطلاب ، عند ما تثبت جدارتهم واستحقاقهم لهذه الاجازات ، والازهر الامين والملجأ والمفزع ...

وعرض الاستاذ المؤلف ، لبعض الشيوخ الذين كانت لهم مكانة علمية ، واطلاع واسع كالشيخ محمد الامير ، والشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ سليمان الفيومي ، وغيرهم ممن اوتوا نصيبا من العلم ، او لعبوا دورا هاما في التاريخ .

وتناول الاستاذ عبد الغني حسن ، الصوفية ورجالها وما أثر عنهم وطرقهم المتشعبة وما اثرت فيهم من الرجال البارزين ، ثم تناول العصامية ، ورجالها ، ومركز عبد الله فكري بين هؤلاء الذين : « لا يؤمنون بالظروف وحدها في تكوين حياة الناس ، لانهم هم الذين يخلقون الظروف ويكونونها ، ويكيفونها لكي توائم مصالحهم وتساعدهم في طريقهم » .

ولقد يكون منصب عبد الله فكري في المعارف ، لو لم يكن رجل طموح، منصب استطالة او بلوغ الهدف او الوصول الى النهاية، عندما عين وكيلا لوزارة المعارف ، لكن يستقر الرأي في وزارة البارودي على اختياره وزيرا لها .

ويعلل المؤلف لاختيار عبد الله فكري للوزارة فيقول :

« والحق ان البارودي قد احسن اختيار وزير المعارف الجديد ، ولم يجانبه التوفيق في هذا ، فعبد الله فكري خبير بالمعارف ، وله فيها خدمة تبلغ بضعة عشر عاما ، وقد ظل بضع سنوات وكيلا لها ، وعضوا في قومسيونها ومجلسها الاعلى الذي قضت الظروف السياسية بانفضاضه ، فهو ليس دخيلا عليها ، ولا غريبا فيها » .

ويشرح الاستاذ المؤلف الجو الذي احيط بتاليف الوزارة وتعيين عبد الله فكري وزيرا ، ويسجل بالتاريخ انعقاد مجلس النواب لمناقشة سياسة التعليم ومشاركة عبد الله فكري فيها ، وبراعته في حمل العبء وتخفيف الحمل .

ثم يعرض الاستاذ محمد عبد الغني حسن لمقالات الشيخ محمد عبده لاصلاح المعارف ، ورأيه في عبد الله فكري ، واشادته في بعض المقالات « بالاراء القويمة التي ابداها ـ عبد الله فكري ـ وبالمطالب المهمة للوكيل التي لا بد من تقريرها والاسعاف بها ، واثنى في اكثر المقالات على غيرة عبد الله فكري وعلو همته » .

وحلل السيد المؤلف موقف عبد الله فكري من الثورة العرابية ، ورأي كثير من المؤرخين الذين تناولوا الثورة ورجالها وما جرى فيها ومن القى عليهم القبض ، او اتهموا بالعمل على اشعال نارها .

على ان الاستاذ عبد الغني حسن ، يتحفظ في مناقشة اراء الذين أرخوا للثورة ، او تناولوها عرضا في كتبهم ، كالشيخ احمد الاسكندري وجورجي زيدان ، وعبد الرحمن الرافعي ، وعمر الدسوقي ، والاب لويس شيخو اليسوعي ، ولم يبد رأيه كعادته في هذه الروايات التي اجمعت آخر الامر على القبض على عبد الله فكري في الثورة العرابية ، لكن

الاستاذ عبد الغني حسن ، يعود فيناقش دخول عبد الله فكري الوزارة العرابية ، « ومع ما عرف عنه من بعده عن الجبهات السياسية والحزبية، ومع ما أثر من مزاجه الهادىء حتى في الاصلاح والتقدم » ويمضي في المناقشة الجادة ويقلب الحوادث ، ويعيش مع الاحداث ، ويستخرج النتائج ، بعد اثبات المقدمات ، ويورد الاراء المختلفة التي احاطت بترشيح عبد الله فكري للوزارة ، مع وجود من هو اولى منه ، باعتباره خبر المنصب ، ومارس الوظيفة الكبرى ، ثم يناقش موقف محمد عبده من الثورة ، وقيامه بدوره في تلك المعركة الفاصلة ، ثم يعود المؤلف ليثبت لنا طبع عبد الله فكري وما يجب ان يكون عليه من الهدوء :

« والحق ان الذين كانوا يطلبون من عبد الله فكري ، ان يكون ثائرا في الثورة العرابية ، وثائرا ضد الخديو توفيق ، هم يكلفون الانسان ما ليس في طبعه ، والشيء ما ليس من وضعه .. فقد كان عبد الله فكري رجلا غير ثوري الميول ، ولا ناري المزاج ، ولا متعجل للاصلاح » .

ثم تستغرق رحلة عبد الله فكري الى مؤتمر المستشرقين وبلاد الشرق، من هذا الكتاب ما ينيف على الاربعين صفحة ، احصى فيها المؤلف المؤتمرات التي عقدت وتواريخها على الترتيب ، والطريق الى المؤتمر ، وتهيب عبد الله فكري السفر الى هذه المؤتمرات اول امره ، ثم اعتياده عليها بعد ذلك ، وزيارته المعرض الدولي وبرج ايفل والمكتبة الاهلية بباريس ، ومقابلته لبعض الملوك ، ومتعته في ذلك المؤتمر الذي يذكره بعكاظ الجاهلية ، ثم هؤلاء المستشرقين الذين احبهم عبد الله فكري وانس اليهم ، ورسائله في مؤتمر المستشرقين ...

على اننا نرى الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، يثبت جدارة عبد الله فكري ، ومركزه في التجديد في لغة الدواوين ، وموقفه من هذه المعركة ، ومحاولته الاخذ بناصر اللغة التي كان يظن انها لا يمكن ان تتزحزح من مكانها الذي اقامت فيه ، واحبت الركون اليه ، فعرض ما آلت اليه اللغة في عهد محمد علي عباس وسعيد واوائل عصر اسماعيل ، وقرار مجلس الشورة ، واتصال هذه الحركة بحركة التتريك ، واشار الى اللوائح والبنود ، والفرق بين لغة الدواوين ولغة التأليف والترجمة ، وظهور طائفة من الكتاب ، كانوا الحد الفاصل بين لغة ولغة وعهد وعهد ، وان كان عبد الله فكري بشهادة الشعود ، اسبق الى الفضل ، واقمن بالمكرمة:

« والذي ساعد عبد الله فكري على التخلص من الجمود الذي بلغته الكتابة في عصره ، هو روحه المتطلعة دائما الى كل جديد . فقد كان على تمام اليقين بأن الماء اذا ركد أسن ، وكان مؤمنا بأن الوقوف بالتعبير عند التعبد بالكلمات هو وقوف لا طائل وراءه ، ولا جدوى منه .. ولقد كان ازهريا مثل باقي الازهريين ، ولكنه لم يسلك مسلكهم ، ولا ذهب مذهبهم بل رام في الكتابة مراما جديدا ، الى ان تهيأ له ما لم يتهيأ لغيره في عصره . ولقد أحس هو من زملائه ولداته في الازهر هذا الجمود ، فكتب رسالة الى بعض اصحابه من المتفتحي الاذهان ، يصف هؤلاء الجامدين الذين تتحرك الدنيا من حولهم وهم قعود ، ويستيقظ الكون امامهم وهم رقود » .

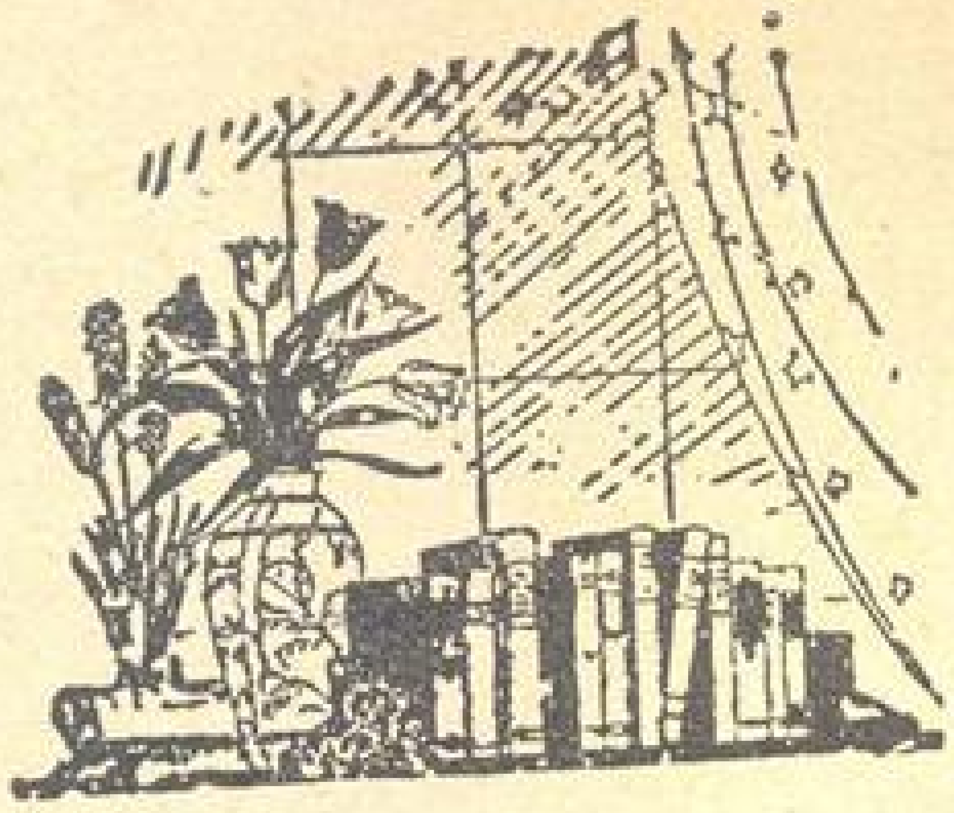
ثم يمضي المؤلف ، يسوق الحجج ، على ان عبد الله فكري ، هو الذي تم على يديه تطوير اللغة ، وانتقالها من حالة الجمود الى مسايرة العصر:

« ولقد استطاع عبد الله فكري بشخصيته من ناحية ، وبحكم صلاته برجال الحكم من ناحية اخرى ، وبحكم وظائفه الديوانية ، في معية سعيد واسماعيل ، وفي نظارة المالية ، ووكالة المكاتب الاهلية ، ووكالة نظارة المعارف من ناحية ثالثة ـ استطاع ان ينقي كتابة الرسائل الديوانية من كثير مما شابها ، وان يضع الاصول لكتابة ديوانية سليمة صحيحة رشيقة مؤدية للغرض ، بعيدة عن التكلف ، خالية من اللحن والخطأ » .

واشار المؤلف الى الرسائل الخاصة والاخوانيات ، اشارة كبيرة ، ووقف وقفة طويلة عند الكتاب الذين ظهر على ايديهم هذا اللون من الوان الادب ، ودور عبد الله فكري في كتابة هذه الرسائل ومحاولته العودة الى عهد بديع الزمان :

« وقد كان عبد الله فكري عالما تمام العلم بحقيقة الدور الذي يقوم

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد أدنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد أدنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ (Dir : 223819)

المنزل ٢٢٥١٣٩ (Dle : 225139)

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

به في هذه الحركة ، وبطبيعة الاشياء التي تملي عليه روح التجديد . فمن غير المعقول ان يكون التجديد من الحضيض الى الاوج دفعة واحدة، ما دامت العقول والاذهان والبيئة والحصيلة والظروف كلها غير موانية ولا مهيأة . ولهذا كانت الحركة التالية لتجديد عبد الله فكري في الكتابة والنثر ، تلك الحركة التي قام بها الشيخ محمد عبده ، ليتقدم في الطريق خطوة اخرى ، بالتخلص من السجع ومن المحسنات اللفظية التي كانت تطغى على الافكار وتعطل انطلاقها » .

ولم يفت الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، ان يحدد مركز عبد الله فكري في الشعر ، ويحصي الادلة ، ويسوق البراهين على موضعه من الشعراء ، ومكانه من هذه الرسالة : « فعبد الله فكري كان شاعرا ، لا ينكر ذلك احد ، ولا يمارى فيه ، وهو يأتي مع الشعراء متى ارخت للادب العربي في القرن الماضي . ولكنه شاعر على قدر المفاهيم التي كانت سائدة في وقته ، لا نستطيع ان نجرده من ذلك ، ولا ننزعه عنه » .

ومن غير شك ، فان الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، الحريص على لم موضوعه من جميع اطرافه ، الموفي بحثه الغاية ، لم يعجله عدد الصفحات التي ارتبط به ، ولم يثنه عن توضيح ظاهرة اليمة ، وكارثة عظمى ، أصابت الادب في صميمه ، واخرته هذه السنين التي لولاها ، لخطى الادب خطوات وخطوات ، ولكان له شان اي شان .

فالتاريخ الشعري الذي سيطر على ما نظم شعراء القرن التاسع عشر في الاقطار العربية كلها قد كان يقضي القضاء المبرم على هذا الفن، ويودي به ، لولا ما جد من اغراض صرفت الشعراء عن هذا العبث الذي اندفعوا اليه غير مبالين بنتائجه ، او ما يعود على الادب من كسب او خسارة .

غير ان الاستاذ المؤلف ، لم يقل لنا الدافع الى هذا اللون ، وهل كان له اصل في العربية حتى احتذاه الشعراء ، ام هو نوع من الابتداع ، انساق اليه الشعراء من غير وعي ، وان كان الاستاذ عبد الغني حسن ، قد شرح حساب الجمل وافاض في ضرب الامثال ...

ثم وضح السيد المؤلف دور عبد الله فكري في العلوم الطبيعية، وذكر شهادة المقتطف على باع عبد الله فكري في هذه العلوم ، ولم يثبت كيف وصل عبد الله فكري الى هذه العلوم وهو العالم الازهري ، الا ان يكون ذلك بكتاب يحمل نظريات صحيحة ، او اراء علمية نوقشت واقرها العلماء ، اما ان يشهد بها عالم واحد ، او تتناقلها صحيفة من الصحف، او يشير اليها كاتب من الكتاب ، فهذا لا يقوم حجة على علم الرجل في هذه الناحية ، او ينهض دليلا على التبريز فيها ، وان كان الاستاذ المؤلف ، يستشهد على صحة كلامه ، واثبات علم عبد الله فكري في هذا المجال ، بما انبثق عن القضية التي اثيرت حول دوران الارض ، وكان عبد الله فكري طرفا فيها ، او ما تفرع عن هذه القضية من قضايا التاليف والنشر والالفاظ الاجنبية :

« وهكذا كان صوت عبد الله فكري اول الاصوات العربية واقواها في الفكر العربي الحديث لاقامة نشر الكتب على اسس علمية ، وتحت توجيه واع سليم ، حتى يرتفع مستوى الكتاب الى ما يرجى له من دور فعال في انهاض البلاد ، دون التجاء الى الارتجال والاضطراب » « اما ثاني القضيتين ، فهي قضية التخلص من الالفاظ الاجنبية التي كانت تفد على البلاد كالسيل في ذلك الزمان ، ووضع الفاظ عربية لها تقابلها وتؤدي معانيها ... »

ومن الانصاف ، ان نذكر ، ان الاستاذ عبد الغني حسن ، لم يترك بحثه هذا دون توفية ، فقد عرض فيه لكل الجوانب التي ضرب فيها عبد الله فكري ، والاتجاهات العريضة الواسعة ، التي كانت مرمى بصره ، وموضع بحوثه ، ومكان اهدافه ، فكتب فصلا عن الابوة ، جمع فيه ما قيل في هذا الباب في مختلف العصور ، وابان فيه دور عبد الله فكري من ديوانه ، واورد هذه النصائح التي وجهها الشاعر الى ولده ، وناقش رأي النقاد فيها ، واثبت طائفة من الحياة ، وموقف الحياة منه ، وتوازن كفتي الميزان عنده بين طلب الدنيا والآخرة .

واورد السيد المؤلف في فصل طويل ، فكاهات عبد الله فكري وممازحاته ، بعد مقدمة طويلة عن هذه الفكاهات التي تعتمد على النكت البلاغية والفنون الكلامية والمقابلات اللفظية والابواب النحوية ، وغير ذلك من فنون القول التي كان يتعمدها عبد الله فكري في ممازحاته ومطارحاته وسمره .

كل ذلك كان بتدبين المكتوب اليه ، وذكره ، واثبات رده ، لتتفتح الصورة ، ويظهر الفرض ، ويحصل المكسب للغة ، والمغنم للعربية ..

ثم كان الفصلان الاخيران من هذا الكتاب : « مؤلفات عبد الله فكري وآثاره » والمراثي التي قيلت فيه ..

والواقع ، ان الاستاذ عبد الغني حسن ، ذكر ستة عشر مؤلفا لعبد الله فكري ، ووقف عند كل مؤلف منها ، يشرح غرضها ، ويبين عن مضمونه ومحتوياته ، ليكون في متناول كل قارىء ، ويغني عن تصفح واستيعاب كل الصفحات ، مع الاشارة الى الطبعات ، او التي لم يصبها البعث او الاهتداء الى اصلها ، او ذهبت ضحية الاهمال ، او مر السنين.

ومن الجدير بالذكر ، هذا الثبت الذي ختم به المؤلف كتابه : « عبدالله فكري » ونقل فيه كل ما قيل في الرجل ، غير المقدمة التي تناول فيها الاستاذ عبد الغني حسن ، الوفاء للراحلين في مختلف عصوره ، والاستشهاد بكثير من النثر والشعر ، المشهور وغير المشهور ، مما يعد بابا من ابواب الادب ، ومرجعا من مراجع اللغة والتاريخ ، بما حوى على الترتيب ، وما ضم على تعاقب العصور والازمنة ..

ولا يسع المنصف ازاء هذا البحث القيم ، الذي توافر عليه الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، الا ان يغضي عما جاء فيه ، من عجلة اقتضاها الوقت ، وعدد الصفحات ، والاخراج في وقت محدد مضروب ، لا فكاك منه للرجل ، ازاء التكليف ، او الارتباط بشرف الكلمة ..

فالذين يعرفون عبد الغني حسن ، يعرفون فيه ، الباحث المتع ، والكاتب البارع ، والشاعر الموهوب ، صاحب الخلق الكريم والامانة العلمية التي يحرص عليها في كل ابحاثه او تناوله لاثر من الاثار ، لا يعرف المجاملة ، ولا يحيط به ما تواضع عليه الاباء من هذه المنافع المتبادلة ، او الجري وراء المغنم او الجاه او الشهرة .. لذلك فكانوا ينتظرون منه ، وقد تصدى لهذا التاريخ الادبي ، ان يكون موسوعة كبرى، تبقى اثرا خالدا للرجل ، وكنزا لابناء العربية في جميع ارجاء الارض..

على انه عسى ان يضع في ذهنه ، ويحسب لقرائه الحساب الشديد ، وهو يعيد طبع هذا السفر الجليل ، ان يتناول الحوادث في سعة ، والتاريخ في أناة ، والتحقيق في صبر ، ليكون كتاب العربية الاوحد ، ومرجع الضاد الوحيد ، وملاذ الصادين الباحثين من كل صوب . وعسى ان يكون في ذهنه كذلك ، احتساب تعبه واجره عند الله ، الذي لا يضيع اجر من احسن عملا ...

القاهرة **ابو طالب زيان**

المدار المغلق

مجموعة شعرية – جبرا ابراهيم جبرا – ١٤٢ صفحة – حجم كبير – منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت–مطبعة قلفاط ببيروت

الاديب الصديق جبرا ابراهيم جبرا ، من طلائعنا المطمين اقدامهم لقساوة الطريق .. منا ، نحن الذين انبتنا المبدع في صحاراه الضنية .. غناؤنا للرمل ، وحداؤنا تقتاله الظهيرة خلقنا في ارض شمارها النكران.. شددنا شتيمتنا الى الكلمة نطلقها في وجه هذه الحضارة الزيف .. تعبنا في اسماع الناس صيحاتنا المصلوبة على حروفنا الصائتة .

اصدر الاستاذ جبرا مداره المغلق .. حصاد الخيبة ، ورماد الضياع المر .. اطلالة سفان متعب على مرفأ بخيل ..

كنت ارى الصديق متعبا .. حزينا على خيبة هذه الرحلة ، وتفاهة ذاك الحصاد ناقما على ذلة هذه الحضارة .. اغنية الحلم ، حمله فاس

اجداده والسير في درب مفضية الى الشمس .. كنت اراه يكسر رايته فوق غنيمة ابحاره اليائس :

« ما عدت اريد ان اكتب ـ واسمي مطبوعا جعلت اخشى رؤيته ـ فهو ينبوع عما حوله كعين حولاء بين عيون السوي ـ او لفظة طهور بين «الشتائم» .

نعم .. ان نفني لاناس لا يفرقون بين آهة الوتر والشتيمة ، موت رهيب ، ذبول للكلمة الشماء ... انحناءة ذليلة للحرف الشجاع محاولتنا اطراب المفكرين باقدامهم :

« يا حمل الله الحامل خطايا العالم ـ قطر دمعنا لفظا ـ انقذنا من غربة البكم ـ حاملو البحر نحن ـ حاملو المدى ، حاملو السماء ـ حاملو الموت بين نومة ونومة » .

غربتنا الابدية في هذا الوجود تبرير التمرد في حروفنا .. زحزحتنا الصخور عن منابع النغم الربيعي لا تجدي .. قيثار الحروف تعبى ، واذرع الكلمات ذابلة .. لا بد لنا من اطلالة اخرى على هذه الدنيا .. بكلمات نزرع احضانها دلالات جديدة .. لا بد لنا من وجدنة ابعاد صبية للحروف نودعها معاناتنا ... فالكلمات هذه سئمت ركضها في درب عتيقة ... لكن !! والقارىء ؟؟ قساوة القيد الرابط اجنحتنا لذلة الرماد :

« اندخل عراة بين جمع تسربلوا بالرقع ؟ ـ ابين الكسحاء ننطلق على الجياد الاصيلة » .

غربتنا ، حمل اضلاعنا المبهض .. ونكران التراب لنا موسم دائم السخاء .. ضحايا النكران من قوافلنا كثرة .. اعادوا للحرف هيبته ، وللفاصلة نقاءها ، لكن الجحود كان غنيمتهم العلقم ... كان املهم ان يدفنوا اهدابهم في طراوة شمس العراق ... وان يطفئهم الموت على ترابه حلمهم الصبي :

« ذئابي الفتني والفت السباع ـ في غاب عمري ـ جيلي في الغاب فريسة ـ صحبي طعمة الضواري ـ قلوبنا غرزت على الاغصان الكواسر »

كان الاستاذ جبرا يشد بقايا صرخاته الى كل حرف .. ويمرر لوعة شكواه على كل كلمة فحصيلته ، حصيلتنا ، من رحلة هذه السنين الضنينة .. التمزق المبكي .

يا كم عزفنا على اضلاعنا الف حداء ملون .. ويا كم ظفرنا من طراوة سنيننا الف صدى حزين ... لكن غربة الشعراء في هذا العصر سمته المخجلة .. ان يحرق الشاعر حنجرته في انشاد قصيدة وبحة شحاذ الرواق الاعمى سواء عند ناس هذه الايام :

« عشرين سنة .. ورمت قلبي ـ نقبت عيني .. جرحت حنجرتي ـ اجمع الافكار والصور ابثها مع هبات الرياح ـ تحمل العشق مني والقلق ـ .. ورفاقي يخزنون الدنانير .. لا يقلقهم عشق لشيء او احد » .

هذا حصادنا .. لكن كلماتنا ، هذه المرايا العجيبة كما يقول جان بول سارتر ، لا زالت ملجأنا النهائي بعد كل رحلة ضياع .. لا زلنا نثقل اجنحتها بمواويل ليلنا الموحش .

غربتنا في هذا العصر نشرد منها الى كتف حرف ، او خفقة كلمة .

قيثارنا لا زالت سخية النحيب ، مرثاة هذا العصر ، وخير الف مرة ان نضيع مع قوافل الفجر من عيشنا في مدينة لا تدغدغ منابرها همسة شاعر عاشق ..

والصديق جبرا .. الفارز صيحاته المتمردة في الكلمات .. الرافض متاهة الضياع ، في مداره المغلق .. يقف على هامة صخرة مشرئبة ليفتق سمع هذا العصر الاصم بهتافه .. فالقيمة الصخرة لا تعرف انفلاتة السخاء .. وهذه الدروب الظالمة تحتضن الانبياء والسفلة سوية .

لا بد لنا من ان نوقد على راياتنا دفقة هتاف شجاعة ـ نحن البحارة المغامرين ، اقدامنا طعمة الجزر .. وعيوننا تثاؤب النجوم :

« نحن الغرباء الابديون ـ نحن الرافضون .. المخلفون للطين سلاحف الطين ـ غبار ارجلنا قصائد ، ينتحر به الاخرون » .

بغداد علي جعفر العلاق



ظهر حديثا

● ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية ـ تأليف جورج صيدح ـ الطبعة الثالثة منقحة ومزيدة ـ ٧٤٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت .

● الرائد : معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقا لحروفها الاولى ـ تأليف جبران مسعود ـ ١٦٤٠ صفحة ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ المطابع الاهلية اللبنانية في بيروت .

● اكليل شوك حول قدميه ـ قصص قصيرة تأليف لور غريب ـ مصممة الكتاب والغلاف لور غريب ـ ١٦٨ صفحة ـ منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت ـ مطبعة قلفاط ببيروت .

● فقراء الناس ـ مجموعة قصص ـ تأليف جورج سالم ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات الفن الحديث العالمي بدمشق ـ مطبعة المفيد الجديدة بدمشق.

● شتاء البحر اليابس ـ رواية ـ تأليف وليد اخلاصي ـ تقديم الدكتور عبد السلام العجيلي ـ لوحة الغلاف بريشة طالب يازجي ـ ١٤٤ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطبعة منشورات عويدات بحارة حريك .

● آفاق الفكر المعاصر ـ تأليف نخبة عالمية معاصرة من اساطين الاختصاص تتناول جميع ميادين المعرفة ـ باشراف غايتان بيكون ـ ترجمة لجنة من الاساتذة الجامعيين ـ ٩٣٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطبعة منشورات عويدات بحارة حريك .

● صفحة مطوية من جهاد البطل اللبناني ابو سمرا غانم ـ تأليف جرجي نصر ـ مستل من مجلة المشرق اذار/نيسان ١٩٦٥ ـ مع رسم لابي سمرا غانم لم ينشر بعد ـ ٣٦ صفحة ـ حجم كبير ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● عينان من اشبيلية ـ رواية ـ تأليف سلمى الحفار الكزبري ـ ٢٢٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● عبد العزيز آل سعود : سيرة بطل ومولد مملكة ـ تأليف بنوا ميشان ـ ترجمة وتقديم عبد الفتاح ياسين ـ ٣٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● سلطان في عمان : قصة عمان والبريمي كما يرويها كاتب انجليزي ـ تأليف جيمس موريس ـ لم يذكر اسم المترجم ـ ١٦٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطابع شركة الطباعة الحديثة (؟) .

● **La vie des Femmes dans un village Maronite Aïn el Kharoubé — par Jacqueline des Villettes — Préface par Mgr. Michel Doumith, Evêque maronite de Sarba — 142 pages — gd. f. — Publications de l'Institut des Belles Lettres Arabes, Tunis — Imprimerie N. Bascone & S. Muscat, Tunis.**

● **Textes : 1922 — 1964 — par Georges Linze — Préface de Constant Burniaux — 136 pages — Editions « Anthologie », Liège, Belgique.**